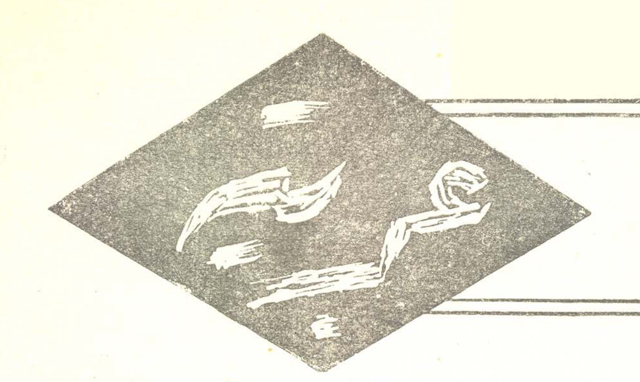


مُناقشات

مسؤولية الاسرة في انحراف الاحداث

المحاضرة التي ألقاها الدكتور جمال أتاسي في ردهة النادي العربي بدمشق ، مساء ١٩/٤/١٩٦٠ وذلك بدعوة من جمعية ارشاد الفتاة العربية ، وهي احدى محاضرات الموسم الثقافي الذي نظمته وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل بالاشتراك مع الهيئات الاهلية لمعالجة موضوع (الاسرة في الاقليم السوري) .

الانحراف خروج عن خط سوي . والاحداث المنحرفون أفراد خرجوا عن الطريق الذي ترسمه لهم في بيئتهم القيم الاخلاقية السائدة ، وقواعد السلوك الاجتماعي والانظمة والقوانين . ان الانسان حر ولكن وجوده مشروط بجملة من الشروط لا تدرك حريته الا من خلال انسجامه معها . لقد جئنا الى الدنيا في تاريخ معين وبيئة معينة . نحن لم نختر زمان مولدنا ومكانه ، لم نختر وطننا ولا أسرتنا ، ولكأن مجيئنا كان محض صدفة ، ثم كان علينا منذ صرخة الحياة الاولى في صدرنا ، ان نتلاءم مع تلك المجموعة من الشروط والظروف الكثيرة التعقيد . بدأنا ولا رغبة مع تلك المجموعة من الشروط والظروف الكثيرة التعقيد . بدأنا ولا رغبة عندنا الا ان نتنفس ونعيش ، بدافع غريزي للحفاظ على البقاء . لقد حملنا ميراثنا في دمنا وتكويننا ولكن ميراثنا الاكبر وكل مصيرنا ينتظرنا هنا ، في هذه النشأة الاجتماعية المزدحمة بالمفاجآت .

الاطفال لايمكن حضنهم في محاضن اصطناعية كفراخ الطيور . انهم ينمون ويكبرون في مجتمع متكون ، وفي اطار اسرة متكونة ، ويتلقون مع الغذاء، منذ التفتح الاول للحياة ، عطف الام ودفء صدرها، وحماية الاب وظل رعايته . ويدخلون منذ البداية، في تفاعل مباشر مع هذه الحلقة المحيطة بهم ، الا وهي الاسرة .

والاسرة اب وام بالدرجة الاولى ، ثم اخوة وأحيانا يضاف الاقارب والارحام ، من جد او جدة او عمة ، يعيشون في روابط صميمية بجو الاسرة الواحدة .

ان الاسرة خصيلة تطور انساني خلال عصور طويلة فهي خلية ثبتت ونمت في جو المجتمعات الانسانية وعلى مدى مراحل التاريخ ولا يمكن تصور نشأة للانسان بدون اسرة . حتى اولئك الذين حرموا من ان يكون لهم اب وام واخوة ، يتطلعون الى الحياة من خلال الآخرين الذين لهم اب وام واخوة . وان المؤسسات التي تقوم بتربية الاطفال خارج اطار الاسرة، من مستشفيات، او مياتم ، او دور للقطاء ، تعاني مشكلة تربوية كبرى . فالطفل الذي تتفتح عيناه على عدد من الاشخاص يعنون به ، يكون متخلفا في تطوره العاطفي والعقلي وتلاؤمه الاجتماعي ، عن ذلك الذى تتفتح عيناه في كل يوم على وجه امه ورحمة صدرها وذراعيها . وهذا ماجعل دور الحضانة والتربية الحديثة ، تهتم بان تخصص للعناية بالطفل الرضيع منذ البداية ، مربية واحدة يراها دائما ، ليتفتح وعيه عليها ولتنضج عاطفته بتفاعله معها ، وهذا مادفع ايضا ، الكثير من الدول السابقة في معالجة شؤون الاطفال والاحداث ، الذين حرمتهم الظروف ، من اسرتهم بصورة عارضة او دائمة ، الى اقامة مؤسسات الحضانة

والتربية والاصلاح ، للاحداث ، بأشكال يكونون فيهـا على أقرب مايكون من جو النشأة في أسرة طبيعية .

ففي جو الاسرة ، تتهـذب غرائز الطفـل وتنمو عواطفه في اتجاه معين . ويستقظ حسه الاجتماعي ووجدانه الاخلاقي ، كما يتفتح الوعي والذكاء وتنمو هذه الفعاليات النفسية وتتكامل في تفاعل صميمي مع جو الاسرة ومع الجو الاجتماعي العام الذي ينعكس على وجود الطفل في اطار هذه الاسرة .

وسنوات النشأة الاولى تقرر الى حد بعيد مصير الانسان ووجهته ، بل يكاد يتحدد تكوين الانسان فى طباعه وميوله ، وهو فى الثامنة من عمره . وفى هذه السن يصبح الطفل ، الطبيعي غير المتخلف او المريض، قادرا على ادراك احكام المجتمع الاخلاقية ، وقواعـده السلوكية ، وما يباح فيه ، وما ينهى عنه . واذ أردنا تلمس بوادر الانحراف في الطبـاع او الشـذوذ في السلوك ، فاننا نستطيـع تلمسها فى تلك السن . ولذلك كانت معاهدة حماية الاحداث ، ودور الملاحظة والاصلاح ، ومحاكم الاحداث ، تختص بالطفل المنحرف والجانح منذ سن التاسعة ، وتمتد به الى الثامنة عشرة سن المسؤولية الكاملة ، السن التى يعتبر فيها الفرد، وقد أتم تلاؤمه الاجتماعى ورشده العقلى والاخلاقى .

يندر ان نجد منحرفا او جانحا او مجرما يبـدأ انحرافه في سن الرجولة الكاملة . والحالات التي يمثل فيها المجرم امام القضاء اول مرة قبل سن الثامنة عشرة ، حالات كثيرة جدا . والاحصاءات الجنائيـة تدل على ان علاقة الجانحين مع سلطات العدالـة ، تبدأ على الغالب مابين الخامسة والسادسة عشر من العمر . ولكن استقصاء جديا لحياة الجانحين ، فـي نزاعهم مع العدالة ، يثبت في كثير من الحالات ، ان سلوكا معاديا للمجتمع ، سبق الواقعـة القضائيـة بخمس سنوات على الاقل (ونترك هنا جانبا الحوادث الجنائيـة العارضـة او الخروج على قواعد المجتمع، الذي تتسبب به ظروف طارئة) .

ان الجنـح الاولى يرتكبها الحـدث وهو في سن العاشرة او التاسعة واحيانا في الثامنة . والسلوك المنحرف يتضح مابين السابعة والتاسعة من العمر .

وفي هذه السن المبكرة يرتكب الاولاد جنحا صغيرة . والسرقة منتشرة بين الاطفال على نطاق اوسع ممـا يمكن ان يقدر . والميل للشراسة والقسوة ، نحـو الآخرين او نحو الحيوانات تتجلى بوادره واضحة في هذه السـن ، وفي هذه السن يجب ان يتدخل الاهـل والمربون ليحولوا بـين الطفـل وان يسير في طـريق الانحراف فالجنوح فالاجـرام . وتتجه الـدراسات السيكولوجية الى ان الاثر الكبيرفي تكوين الشخصيـة المنحرفة ، يعود لسن الطفولة مابين الرابعة والتاسعة من العمر .أي للفترة التي تكون حياة الطفل كلها محصورة في جو الاسرة . فنحن عندما نبحث هنا في موضوع « مسؤولية الاسرة فى انحراف الاحداث » ، نرانـا أمام مشكلة انحراف الاحداث كلها ، بل أمام مشكلـة الجنوح والاجرام عامـة .

ان من يزور مركزا من مراكز . ملاحظة الاحداث الجانحين ، أو معهدا من معاهـد اصـلاحهم ، يلحظ مباشرة ، وعند مراجعة جداول الاحداث الموضوعـين في هذه المؤسسات ، من مشردين وسارقين ومحتالين وخارجين على القوانين والآداب العامة ومنحرفين جنسيا ليصل الى القتلة والساديين ، ان الغالبة العظمى مـن هؤلاء الاحداث المنحرفـين قـد نشئوا في وسـط اجتماعي تفككت فيه الاسرة .

لننظر مثلا الى الجداول الاحصائية لاعمال مركز ملاحظة الاحداث في دمشق لعام ١٩٥٨ استقبل هذا المركز خلال ذلك العام ١٦٥٧ حدثا ما بين التاسعـة والسابعة عشرة من العمر ، ومن بين هؤلاء :

١١٧ حدثا كانوا يعيشـون في جـو أسرة تامـة بوالديهما ، وهؤلاء يشكلون ٧٪ فقط من المجموع . بينما كان يعيش : ١٤٦ في حمى الاب وحده .

١٩٧ في كنف أم

٣٣٩ فـي أسرة مكونـة مـن الاب وزوجة الاب

٢٦٨ لهم أم وزوج أم .

٨٤ كانوا يعيشـيون فـي كنف أخوتهم الكبار

١٢٦ كانـوا يعيشـون في حمى أقرباء لهم .

٥٣ كانوا يعيشون كمستخدمين عند غرباء .

٨٨ لاوالـدين لهم ولا أقربـاء أرحـام

٨٦ كانوا يعيشون بلا أهل مشردين في الطرقات .

١٨ لايعرفون لهم اهلا .

وفي جدول دراسة الاسباب نرى ان :

١٩٦ حدثا من بين اولئك الـ ١٦٥٧ قد دخلوا المركز لاسباب عرضية طارئة ، لحوادث دهس مثلا ومخالفات .

٨٣ حدثا كانوا متخلفين عقليا .

٣١ حدثا كان سبب جنوحهم يعود لاسباب وراثية .

١٢١ حدثا صنفوا بين المنحرفين المضطربةغرائزهم او السيكوباتيين المنحرفين بالفطرة .

وردت اسباب جنوح ١٢٢٧ حدثا ، اي مايشكل ثمانين بالمائة تقريبا ، الى اسباب تربوية واجتماعية، مدارها تفكك الاسرة الاجتماعي او تحللها الاخلاقي.

وفي فترة شهور عدة عملت بها عام ١٩٥٨ كطبيب في معهد الغزالي لاصلاح الاحداث الجانحين ، استطعت ان ادرس مايقرب من مائة حالة من حالات الانحراف الجدي ، ولم اجد بينها حادثة واحدة ، الا وكان جو الاسرة عاملا اساسيا في تكوينها ، ان لم يكن بتفكك الاسرة او فسادها ، فيما اعطته من ميراث ثقيل في التكوين والطباع .

وعند بحث مسؤولية الاسرة في انحراف الاحداث لن نتقدم خطوة كبيرة فيتوضيح المشكلة،اذا مااقتصرنا على تعداد نواحي الانحراف ، ونواحي تفكك الاسرة واثرها فيها . بل لا بد لنا ان ندرك كيف يتكون الانحراف ، لمعالجته قبل ان يسفحل ويصبح طبعا في الجنوح ومعاداة المجتمع ، والواضح ان أثر معاهد الاصلاح في تقويم الاحداث وردعهم ما زال ضئيلا . والذين يدخلون هذه المؤسسات الاصلاحية في سن مبكرة ، يعودون اليها في الغالب تكرارا . وكثيرا ما ينتهون منها الىالسجن ، حتى فيالبلاد التي أقامت معاهد اصلاح الاحداث على احدث الطرق التربوية والعلمية . وأذكر أن ثمانية من الجانحين الذين غادروا معهد الغزالي عام ١٩٥٨ ، بعد أن اتموا المدة المحكوم عليها اقامتها في هذا المعهد ببلوغهم الثامنة عشرة لم تطل اقامتهم طلقاء في المجتمع ، بل انتهوا سريعا الى سجن القلعة للكبار . ومنهم واحد قام بعد مغادرته المعهد باقل من اسبوع بتشكيل عصابة للسلب تسلطت على عدد من الناس في حي « ابو رمانة »

***

لفهم تكون طباع المنحرف ، لابد من معرفة تكون الطباع السليمة . لابد من معرفة تطور الغرائز عند الانسان منذ نشأته ، وتكون الحس الاجتماعي والوجدان الاخلاقي ، ومن ثم معرفة العوامل والدوافع التي تجنح بالطفل للخروج عن الطريق السوي ، وكيفية تأثرها .

وهذا موضوع واسع ، انكب على دراسته كثيرون من علماء النفس والاجتماع والطب النفسي.وما زالت تتقاسمهم من حوله مدارس واجتهادات . ولابد لنا هنا من الاكتفاء بتقديم لمحات ومشاهدات ، لجعل هذه المشكلة اقرب ما يكون من الفهم الواقعي .

لنبدأ اولا باستعراض نموذج لمنحرف عريق . ولعل اوضح صورة يمكن تقديمها ، هي صورة ذلك المجرم الامريكي كاريل تشيسمان ، الذي تتحدث عنه صحافة امريكا والعالم منذ عدة سنوات ، والذي يعيش في الزنزانة رقم ٢٤٥٥ في احد سجون امريكا ، محكوما بحكمي اعدام وبمدد سجن مختلفة لو تنفذ لكان عليه ان يظل في سجنه حتى عام ٢٠٠٩ . وهو ينتظر الموت اعداما بالغاز منذ اثنتي عشرة سنة ، وقد استطاع بمماحكاته القانونية ، ارجاء تنفيذ حكم اعدامه ثمانية مرات . وهو الذي وصف في الولايات المتحدةالامريكية « بالمجرم العبقري » وعدو المجتمع عديم الوجدان الاخلاقي ، وبالمنحرف فطرة والشاذ جنسيا . ولكن هذا الرجل الذي تفنن في الاجرام منذ حداثة سنه ، يتجلى ذكاؤه ايضا اليوم وهو في سجنه ، فقد درس القانون ليدافع وحده عن نفسه ، والف عدة كتب عن مشاعره امام الموت وعن حياته واسباب جنوحه وانحرافه . وكتابه « الزنزانة رقم ٢٤٥٥ اوراق الموت » ، لربما كان من اقوى واوضح ما كتب عنعرض وتعليل الانحراف في الطباع ، هذا الانحراف الذي يجنح بالانسان للخروج على المجتمع منذ سن مبكرة . لقد ادانه المحلفون والقضاة آخر ما ادانوه ، في سبع عشرة

جريمة سلب مسلح واغتصاب نساء بالقوة ، جرائم نسبت في حينها لمجرم مجهول اشتهر تحت الاسم « الشقي ذي المصباح الاحمر » للطريقة الخاصة التي كان يستعملها في عمليات السلب والشذوذ .

لقد ادين تشيسمان على انه ذلك الشقي ، ولكنه ما زال منذ صدور الحكم وهو يصر على براءته منهـا ، ويقدم لنا بالمقابل تجربة لا نستطيع الا ان نقول انها تجربة انسانية ، ويسرد لنا في كتاباته ، تاريخهالطويل في الانحراف وعداء المجتمع والخروج على قواعده وقوانينه .

يمضي تشيسمان اليوم في السنة الاربعين من عمره قضى قرابة خمسة وعشرين عاما منها في السجون ومعاهد الاصلاح . كان جانحا وهو في التاسعة من عمره ، وادخل مرتين لمعهد اصلاح وفي الخامسة عشرة ادخل مرة ثالثة سجن الاحداث ، وبعد الثامنة عشرة حكم بالسجن ثلاث مرات وفر من السجن مرتان . وانتهى وهو في السادسة والعشرين الى سجنه الاخير وحكم بالاعدام . جرائمه بدأت بالسرقات والسطو المسلح والاعتداءات والانحرافات وتنظيم عصابات من الاحداث ، وسرقة لسيارات فخمة كان يقودها بجنون بين مطاردات رجال البوليس ورصاصهم . وهو نفسه يسمي اخلاقه اخلاق الغاب ، ويتحدث عن ذلك الشيطان الذي يدفعه من الداخل ، عن دافع غرائز الابتدائي المتوحش التي لا ترتدع او ترتوي . ويكتب لنا عن نشأة ذلك الشعور العدائي للمجتمع في قلبه وكيف جعله لا اخلاقيا كافرا . ولكنه يتحدث بحنو كبير عن يقظة طفولته الاولى الفذة ، التي لم يخرج منها الا ليلقى البلايا وكل معارضة المجتمع وكل عقباته تقوم في طريقه ، فتحول بينه وبين التلاؤم معمجتمعه الذي لم يزرع في قلبه الا الالم والاذى والاحقاد .

يعتقد تشيسمان انه يحمل ميراثا ثقيلا في اسرته ومولده ، اذ هو ابن لقيطة حالمة ، ضعيفة امام نزوات ابنها . اما ابوه فرجل عادي ، ضعيف الشخصية فاشل في الحياة ، لم يستطع ان يسيطر على ابنه يوما . وامام هذه النشأة في اسرة واهية ، جاء الفقر وبطالة الاب ، واحس كاريل الصغير بقسوه هزء الآخرين ، وهو يرى اباه يحمل المنح والاغذية التي تقدم للعاطلين عن العمل . واصيب واسرته بحادث سيارة انتهت بشلل امه واقعادها ، وحاول الاب الانتحار اكثر من مرة وكانت صدمات قاسية للطفل اقامت في حياته الخوف والقلق . ومن قبل ذلك فاجأه مرض الربو في طفولته المبكرة ، وكان يحس الاختناق والضيق والخطر ، واصيب بحمى دماغية يقول بانها افقدته ما كان يحمل قبلها من حساسية مفرطة للالحان والالوان . واحاط حبه الاول الخوف والفشل . وتولد عنده منذ البداية احساس مرهق بالنقص والعجز وبظلم المجتمع وتخلي الاله عنه . وامام هذا لم تجد دوافعه ناهيا من اسرته ، ولم تجد غرائزه وازعا ، ولا من يربيها ويصقلها . القيم والنواهي المفروضة عليه ، هي قيم ونواهي مجتمع يعاديه . ونضج عقله باكرا وتفتح ذكاؤه ، حتى اذا ما تحركت فيه ارادة القوة والتعطش للتفوق ، وجدنفسه على طريق النقمة ، متمردا لايحس وازعا ولايشعر بمسؤولية امام النظم والقوانين .

يقول في كتابه ، عند الكلام عن الاحداث الجانحين وهؤلاء الصغار ، وانا منهم افراد شاذون مصابون بالنقص والخلل ، يرتكبون جرائم عنيفة غالبا ،فالجريمه في نظرهم مغامرة مغرية واحيانا مميتة . ويتحدث عن الزمرة التي كان يعيش بينها ، من الغلمان الخارجين على القانون ، وعن اسباب خروجهم فيقول : « قد تتلمذوا في دنيا الجريمة ، وكانت اسباب تمردهم كثيرة : طلاق الابوين والفقر والشعور باحتقار الآخرين وتراهيتهم لهم ، تعطش للمغامرات ونزوع لمظهور بمظهر القوة ودافع الغريزة الجنسية احيانا . وما ان تذوقوا الحرية الزائفة للخارجين على القانون ، حتى تجلت لهم حياتهم من قبلها فارغة تافهة ، تمردوا واذ هم بحاجة لقضية يعملون لها ، فقد جعلوا الجريمة قضيتهم . وهكذا ظنوا انهم وجدوا مايبرر سلوكهم كانت قناعتهم ان المجتمع قد تخلى عنهم فليس لهم اذن ان يبالوا بذلك المجتمع . »

ويذكر في كتابه الجو الاخلاقي المنحرف الذي يعيشون فيه : « يقول الاولاد الاذكياء : مت يافعا

ولتكن لك جنة جميلة المنظر ، أو كن اسكندرا كبيرا مجرما ، واذرف الدمع وانت تقترب من سن الرشد ، اذ لم يبق لك في العالم ارض تغزوها ، او جديرة بأن تغزوها » .

ويتحدث لنا باسهاب عن عالمه الخفي وهو صغير ، وعن خلوته « في ظلمة غرفته في الليل ، مع خوفه وشعوره بالاثم » وعن الحوادث التي دخل منها باب الجنوح اول مادخل وهو حدث صغير : « كان ينزل من قمة هضبة ، وكان في نزهة صيد وقضى ليلته في كوخ منعزل ، ورأى امامه فجأة سيارة عند منعطف الطريق الضائع في الجبل ، وفي السيارة رجل وامرأة نصف عارية يمارسان علاقة جنسية ، وفي المقعد الامامي طفلة تبكي وتنادي امها بصراخ يائس ، وتحاول الام تهدئة الطفلة بينما تتابع ارضاء الرجل . ويتزايد بكاء الطفلة وتحاول ان تتسلق المقعد فيدفعها الرجل بشراسة يتبعها بكلمات مقذعة ، وتلتوي الطفلة تحرج في يأس بينما يتابع العاشقان ... بقي هوايت (كاريل) جامدا برهة قصيرة جدا ثم صوب بندقيته الصيد نحو العاشقين واطلق النار وانطلق هاربا بينما يرسل الرجل نباح الوحش الجريح . »

ويكتب عن حادثة شراسته مع كلبة البيت ، ومن بعد ذلك كان يسرق ويسلب ويحمل والديه المال ويكذب قائلا ان هذا كسبه من عمله كبائع صحف . ومن هنا ، وفي تلك السن المبكرة ، كانت النهاية لا البداية . فمنذ ذلك الوقت تحدد مصير تشيسمان الذي اصبح اليوم ذلك الذي يسمونه منحرفا وشاذا ومجرما بفطرته . ويتلقى حكم الاعدام ويرد على قضاته ومدينيه قائلا : « مايفيدكم قتل رجل » ان العقاب كوسيلة للثأر للمجتمع او كوسيلة للاصلاح ليس الاهزيمة للانسان. حاولوا ان تشخصوا التشخيص الصحيح ، وبدلا من ان تقتلوا المرضى ، ليكن هدفكم علاجهم ... انني ماكنت لاصبح شريرا لو لم اشعر بحاجة ملحة لذلك . »

في قصة تشيسمان هذه ، نقرأ نشأة الانحراف عن الاحداث وكثيرا من عوامله ودوافعه ، ونتوقف عند ظروف اسرته . هذه الاسرة الضعيفة الواهية التي لم تضمن له الحماية والطمأنينة ولم تستطع رده او نهيه منذ البداية . ونستطيع تعداد الامثلة الكثيرة ، ولكن اذا كان نموذج تشيسمان غريبا عن مجتمعنا ، فان له ما يماثله . وليس مثال ذلك المجرم العريق في انحرافه والذي اطلقت عليه صحف القاهرة اسم « سفاح الاسكندرية » ، عنا ببعيد . ولقد تفننت تلك الصحف كثيرا في استعراض ذكرياته وتاريخه الاجرامي الذي انخرط فيه منذ حداثة سنه. وقددرس بعضهم انحرافه والحوا على اثر نشأته الشاذة وحرمانه العاطفي وهو طفل ، في تكوين انحرافه وعدائه لاهله وللمجتمع .

ولكن لماذا ينحرف المنحرفون ؟

لماذا نرى احداثا عدة ، يعيشون في بيئة واحدة واخوة من اسرة واحدة ، يسير بعضهم في الطريق السوي للتلاؤم الاجتماعي ويضل آخرون ؟

ان كل منحرف حالة . ولابد من دراسة كل حالة، لكشف اسبابها وطريقة تأثير اسباب الانحراف وعوامله فيها . وفي هذا نظريات عديدة . فمنهم من يستدعي عامل الوراثة والمرض العضوي لاعطائهما المقام الاول ، ويرى تبرير ذلك في حوادث الانحراف الكثيرة ، عند ابناء المجرمين والمرضى العقليين ومدمني الخمر والمخدرات والمصابين بالافرنجي الوراثي ، او عند من اصيبوا بحالات مرضية معينة في طفولتهم اثرت في جملتهم العصبية كالتهاب الدماغ . وهناك الانحراف عند المتخلفين عقليا ، ونظرية لومبروزو في تمييز ملامح وصفات تكوينية خاصة للمجرم معروفة . وما زال يسير في هذا الطريق ومدرسة في الطباع . ترى ان جل حوادث الانحراف عند الاحداث ، تعبر عن اضطراب فطري في الغرائز ، فينشأ الطفل دون ان ينمو عنده اي حس اخلاقي .

وامام هذه النظريات ، التي تنظر لانحراف الاحداث ولمستقبلهم نظرة مظلمة ، تقوم اليوم نظريات اكثر تفاؤلا . فمدارس التحليل النفسي ، في دراستها للحالات المرضية والدوافع اللاشعورية للاضطرابات النفسية ، وفي دراستها للنشأة النفسية وتطور الغرائز والطباع ، تقدم لنا معرفة علمية يتقلص معها ذلك الحيز الكبير الذي يعطي للاطفال المنحرفين بالفطرة، وتكشف عوامل الانحراف ودوافعه وديناميكية تكونه ،

البقيـة على صفحة (٥٥)

أم البطولة

شعر : الامير صقر القاسمي

كم في هواك أرى الشقاء سعادة ... واللوم حين تمر بي ذكراك

طلبوا بان أسلو هواك وهل أرى ... دنيا تلذ بغير جرح هواك

عشقتك روحي مذ عرفتك وانبرت ... بالسحر تلهمني الهدى عيناك

وتعد لي خمر البقا وهناءة ... دنيا تفتق زهرها بشذاك

ولقد رجعت اليك يلهب مهجتي ... لهب الحنين الى ارتشاف لماك

وتهزني الآمال رائعة المنى ... والذكريات الغر من دنياك

دنيا الهوى النشوان أنت خلقتها ... وسكبت فيها الراح من برداك

فخر الأبوة من كماة أمية ... خلدت بمجدهم العتيد رباك

أرضعتهم لبن الأباء فعودوا ... خوض العراك بكل أصيد شاكي

ومشوا على هام الزمان أعزة ... يتخاطفون المجد من علياك

لا يعرفون سوى الأبوة ديدنا ... فسموا بمجدهم على الافلاك

فتحوا وما زالوا لكل كريهة ... وعظيمة شم الأنوف زواكي

أم البطولة ما تحرك غاصب ... الا وثرت بغضبة الفتاك

ما ان لمست بأي أرض جرحها ... الا وجلى ذات قلب باكي

آخر العرس

لأمين نخلة

أصبحت في هم ، وفي يأس　　من هذه الدنيا ، ومن نفسي !

ما العيش من بعد الصبى ، والهوى !　　يا قلب : هذا آخر العرس ....

أين ندامای ، وضوضاؤهم　　من هؤلاء الهمد الخرس !

أين كؤوسي من رحيق الطلا　　ملأى ، فهذي فضلة الكأس !

أين شفاه غضة طالما　　أفهمت منها أيسر الهمس !

أين قدود طالما في يدي　　نامت على أغصانها الملس !

أين رداء كنت جررته !　　وأين مني شمخة الرأس !

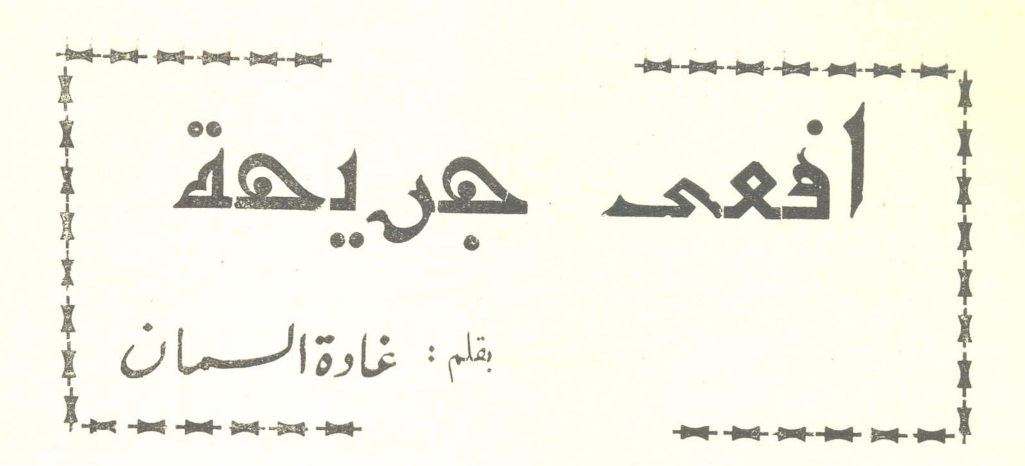
يا من رأى الرجف الذي في يدي :　　هذا الذي حصلت بالدرس .

لا تنظر الطرس ، ولا وشيه ،　　وانظر دموعي جانب الطرس .

قد كان لي أمس ، فضيعته　　وبت في الدنيا بلا أمس .

لولا الذي يخفق في أضلعي　　لقلت : قد فارقني حسي ...

يا ليت شعري ! وشبابي مضى ،　　أمصبح هذا الذي يمسي !



أفعى جريحة

بقلم : غادة السمان

ضمها الى صدرك اكثر يا زوجي الوفي ... ضمها اليك فالموسيقى حارة مغرية وجسدها ناعم الملمس كأفعى الجحيم .. وانا هنا في الركن المعتم زوجتك الباردة التي اعتدت عيونها البلهاء ... واعتاد اصدقاؤك صمتها وسكينتها ... وجلستها الذليلة كقط الموائد .

راقصها بحرارة كما كنت تراقصني ايام خطبتنا منذ خمسة اعوام ... واهمس في اذنيها بعباراتك السخيفة التي اعتدت على تكرارها – دون ان تعي ما تقول – كلما ضممت الى صدرك غريمة جديدة تعذبني بها ... قل لها « احب عبير شعرك الاسود ... واحب عينيك الكستنائيتين » .. عفوا .. بل قل شعرك الاشقر وعينيك العسليتين .. لا تخطىء (بحكم العادة) وانس ان عشيقتك التي سبقتها كانت سمراء ....

يا للضجيج ... يا للموسيقى الصاخبة .. يا لعذابي المريع .. الجميع يرقصون ويقفزون .. (وانا ايضا كنت ارقص منذ أعوام في حينا الفقير .. ويوم عينت مدرسة للاطفال تجمع الاهل والاصحاب في فسحة دارنا فرحين مهنئين .. وانفلت أنا بين الجميع ارقص بعفوية وصدق كغجرية ساذجة .. واتلوى ببراءة ولذة فطرية .. كنت احس ان الموسيقى تتسلل الى جسدي وتحركه .. وانني اعبر به عن رغباتي الخرساء .. وما كان اكثر رغباتي الدفينة بسبب خجلي .. لم أجرؤ قط على النظر في عيون



شاب حتى حسان .. لم أقل له انني احبه الا بعد زواجنا) ..

يا للقصر المزخرف المزيف كالتابوت المنقوش .. ما الذي رمى بي في هذا المكان المريع ... بين هؤلاء الذين يقفزون ويتصايحون بوحشية في عيد ميلادي .. وهذا الرجل .. زوجي .. لماذا يضم اليه هذه التافهة الملونة .. ويدفن رأسه في شعرها الاشقر .. أشعر ان الضجيج يمتصني .. انني أضيع فيه واتلاشى لم اعد استطيع السكوت .. انني اصرخ بأعلى صوتي « اوقفوا هذه الجلبة

والفوضى ايها الحمقى .. اخرجوا .. خذوا معكم رجلي المزيف ودميته الجديدة .. انني أكرهكم .. اكرهكم .. لست منكم وليس باستطاعتي أن أئون .. أنا بلهاء فقيرة أريد أن أعود لطلابي الصغار » انني أصرخ وأصرخ وأكرر .. ولكن أحدا لم يلتفت الي .. لم يسمعني أحد .. فانا خرساء .. خرساء كالصخر .. كالدمعة .. حبالي الصوتية تالفة مهترئة .. كالاعشاب البحرية .. كالهوام .. وأنا فقدت قدرتي على التعبير بالوسائل المعروفة .. ولكنني – للاسف – لم أفقد بعد القدرة على الالم .. ان لي من الالهة صمتها . ولكنني لم أكتسب بعد قسوتها وجبروتها ...

ضمها الى صدرك أكثر ياسيدي .. فزوجتك اليوم صامتة كالقبر .. لن تضايقك ، حتى ولابمجرد العتاب .. ليس بمقدورها أن تسألك بعد اليوم لماذا صممت على النوم في غرفة منفصلة عنها بعد الزواج بأسابيع ولن تسألك بحرقة .. بحرقة كيوم خنتها للمرة الاولى « لماذا تفعل ذلك ياحبيبي .. لماذا » ..

وتلك الفاتنة التي أخترتها اليوم لتكون جلادي .. لتراقصها أمامي وتلتصق بها بحرارة مشبوبة ليست أجمل مني .. ولكنني بلهاء سيئة التصرف .. وهي تعرف كيف تتثنى بجسدها اللدن وكيف تهمس بدفء مثير .. وتعرف كيف ومتى تعطي .. وتعرف كيف تنتزعك مني لحين .. ريثما تنتزعك منها أخرى .. وأنا هنا .. العين البلهاء التي لاترى ولا تدمع .. وحيدة كالموت .. متعبة كالانين .. وأعود إصرخ من جديد : « أنا هنا أيها اللاهون .. الا تسمعون نحيبي الاخرس وصراخي المكتوم .. أنا هنا في الركن المظلم أحس بكم .. وأراكم .. وأتألم بوحشية وجنون .. أنا هنا .. الا تسمعون .. أنا أنثى .. الا تشعرون » ... لم يسمعني أحد .. فأنا خرساء .. ولكنني لم أفقد أنوثتي وغيرتي .. لم أفقد هذا كله يوم أصبت بمرضي الحبسة منذ عام .. فاسترخت حبالي الصوتية وتقلصت .. وأضحيت كئيبة صامتة كالجثة .. كالحائط .. كأرض الغرفة التي يضربها زوجي الان برجليه ..

ضمها الى صدرك ايها الزوج القاسي ... تحسس كتفيها المثيرين .. انهما ليسا أشد نعومة وامتلاء من كتفي .. ولكنها تعرف كيف تبرز جمالها .. أما أنا المحتفي بعيد ميلادها .. فما زلت هنا في الركن البارد .. ملتفة بشالي الابيض كالكفن .. شالي الابيض أتذكره ؟ ؟ .. هدية خطبتنا .. يوم حلفت لي على الوفاء .. وقلت لي انك تحب عبير شعري الاسود .. وصمت أنا يومئذ مع أنني لم أكن خرساء كان الصمت المقدس من عادتي والخجل دائي المستحكم .. حتى عندما كنت توصل أختك الصغيرة الى مدرستنا بسيارتك الفخمة لم أكن أجرؤ على التامل في وجهك بالرغم من اعجابي الشديد بك وقد احببتك دائما .. بهدوئي الظاهري وانوثتي المشبوبة الخفية .. لم أقل شيئا .. لم أرفع نظراتي أبدا الى وجهك .. على الرغم من اهتمامك بي ومحاولاتك المكشوفة لاغرائي .. كنت اتمنى أن أضمك الى صدري والهب وجهك بانفاسي .. ولكنني لم أفعل .. كنت خجولة وجبانة .. وكنت قد اعتدت الحصول على كل امراة تعترض طريقك .. فلما وجدت انني الوحيدة التي لم تنجح فيها أساليبك التقليدية .. ظننت انك أحببتني مع أن أحساسك لم يكن سوى رغبة ملتهبة في الحصول علي – نما أدركت بعد فوات الاوان – وتمت خطبتنا .. وسماني أهل الحي سندريلا .. وتم زواجنا الفاشل وتركت عملي .. وانضممت الى زمرة العاطلين بالوراثة ..

مازالت الموسيقى تعزف بحرارة ، فضمها الى قامتك الفارغة ياسيدي ، وغيبها في صدرك العريض بالرغم من النيران التي تأكل عيوني

لأستطيع الا ان ارى انك مدهش .. أنيق . .
جذاب ووسيم .. رائع المظهر كقبر رخامي براق .
يتلألأ تحت اشعة الشمس بينما تزحف في
أعماقه المتعفنة ديدان نهمة وحشرات مشوهة
مرعبة تنهش كل جسد تحتويه .. ديدانك
ياسيدي نهشت من نفسي طيلة خمسة أعوام ..
من شبابي وبراءتي .. من احلامي التي دفنتها
في قلبك النتن كأوعية الصديد .. ديدانك
ياسيدي أتت على البقية الباقية من صوتي
وظلت تنخر في حنجرتي بشكل مرض أسماه الاطباء
(الحبسة) ..حتى سكت . . الى الابد . .
ومع ذلك ظللت حية صامتة كتمثال معذب
هنا في الركن المعتم ..

خرساء أو لا خرساء .. لم يتغير الحال
يوما منذ زواجنا .. الدمى التي كنت تتلهى
بتبديلها ، لم تكن أنت نفسك تهتم بحديثها ..
ابدا ياسيدي .. كنت دائما أتفه من أن تحب ..
أضأل من ان تشعر . واحقر من ان تنفعل ...
كنت تجهل دائما ان الحب يتطلب مقدرة معينة على
الاحساس وعمقا وادراكا .. وانت لم تحب ابدا
ولن تحب ابدا .. وأنا قد أدركت هذا كله
وأخليت الميدان .. وها انذا اليوم اتوقف عن
حبك ... لماذا ؟ .. لماذا أرتعش وأخشى هذه
الكلمة ؟.. لماذا يدمي قلب المرأة ان تعترف بفشل
حبها ؟.. لماذا يأكل هذا الفشل من كرامتها
وأنوثتها ؟؟.. أنا خاسرة .. خاسرة .. خاسرة ..
وحيدة .. ضائعة اصرخ ولا احد يسمعني اتحدث
بصوت مرتفع يموت قبل ان يترنح على شفتي .
فأنا خرساء ولكنني ما زلت امرأة .

وهذي التي تراقصها . . ليست امرأة . .
ولكنها خرساء . . لم يخطر لها ان تستعمل
لسانها قط الا في تذوق الكافيار والمايونيز ...
وفي ضرب المواعيد على الهاتف .. وفي القاء
تحية الصباح على أمها حينما تستيقظ في
الثانية ظهرا وتقول (هاي مام) وحين تخرج بعد
العاشرة مساء (لاعمالها) وتقول (باي مام) ..
وحينما تقول لسائق سيارتها اذا قبلها أو اذا
اسرع في طريقه (ستوب جوني) .. وعدا ذلك .
فهي خرساء .. أما أنا .. فقد كافحت طويلا
منذ مراهقتي لاساعد أبي .. وطالما رددت
جنبات مدرسة الاطفال صياحي وهتافي . .
وتوجيهاتي ودروسي وضحكاتي ... والاغنيات
البريئة التي كنت أعلمهم اياها .. لا .. لست
انا الخرساء .. ان صوتي حي في حناجر
عشرات الاطفال الذين يرددون أغنياتي ويتسامرون
بحكاياتي .. صوتي حي في قلوبهم .. حيث غرسته
منذ أعوام وتركته هناك لتزيده الايام صلابة
وخلودا .. صوتي حي في نفوسهم حيث وهبته
لهم أغنية صافية تنبض صحة ، ونشيدا مشرقا
مطرزا بالشباب والضياء ..

ويوم تزوجتك ياسيدي وتركت عملي . . .
حملت معي حنجرتي المزقة المستنفذة وقلت
هذي واحتي .. ويالواحه الجحيم .. يا لسوقهم
الرهيبة .. سوق العبيد .. لم يخطر لي انني
كنت رخيصة لديك .. فانا بلهاء وفقيرة ياسيدي ..
ولكنني امرأة .. وأنا قد انتهيت ولكنني لن
أمضي بالبساطة التي تتصورها ..

ضم شفراك الى صدرك فقد بدأت تتعب ...
ضمها اليك بعنف وقوة .. عذبني .. اسحقني ..
فقد بدأت اجد لذة في عذابي ما دام يحررني
من بقايا حبك .. لقد كشفت لك عن صدري
فاضرب بقسوة .. فما زال في القلب دفقة دم
ورعشة .. وما زال في الاعماق طيف حنين ..
وما زلت طاقتي على التحسس بالعذاب هائله ..
وأنا الان حائرة .. ضائعة .. ولكنها تضحك
بين ذراعيك لا أسمع الا ضحكتها .. وانت تداعب
رقبتها بوجهك وتدغدغ جسدها بين يديك
بعبث ونهم .. رفاقك يحدقون الي بشيء من الرعب
اللذيذ وبكثير من الاثارة انهم يطالبونني بمشهد
هائل .. يودون التلذذ برؤية عذابي .. يريدون
قصة تلوكها السنتهم (ينتظرون مني ان أنهض واقترب
منك واحاول انتزاعك منها ، حيث ترفع يدك
القاسية وتصفعني .. وتعود الى رقصك بكل
برود بينما أنا على الارض كتلة من اللحم المنهوش

تدوسها الاقدام) ..

لذيذ هو ذلك الحقد الاسود الذي تسلل الى أعماقي .. ورهيبة هي تلك الافعى التي استيقظت في نفسي .. وبدأت تنفث ذيفانها في أنوثتي الذبيحة وكبريائي .. وشرسة هي تلك النمرة التي تثاءبت في قلبي وأظافرها الحادة تتخبط في الفراغ .. بحثا عن فريسه .. اضحيت مزيجا من افعى ونمرة .. فقد سحقني النكران .. والغيرة والحرمان ..

ضمها الى صدرك اكثر .. احمها مني فان خدها يغريني بالصفع .... الخد الذي تتحسسه بشفتيك الآن وتغمره بقبلك السريعة اللاهثة .. أهون علي ان تنتزع اظافري .. أن انتزعها أنا بأسناني .. أن انهش ذراعي واغرس المسامير في عيوني من ان تهان كرامتي وانوثتي هكذا .. امام الجمع الشامت .. امامك انت ..

ضمها الى صدرك فقد بدأت اجد لذة وحشية مؤلمة وانا ارقبك وانت تخطيء .. انني امسك بمقعدي بشدة كي لا انهض وابصق في وجهك .. باشمئزاز مدمر .. انني امقتك .. هكذا .. فجأة .. اشعر انني امقتك .. مزق الحنايا التي نبضت ذات يوم بحبك .. لطخ كل ما في نفسي بالدم والعويل حتى لا يبقى لدي شيء يهتف باسمك .. ايها الوحش .. اغرس انيابك في صدري .. وانا فقيرة .. بلا صديق .. وانا خرساء .. لا استطيع ان اصرخ .. لن يسمع احد عذابي اللاهث .. لن يتلذذ بدماري انسان .. ضمها الى صدرك واغرس مديتك في قلبي حتى آخرها .. لا .. لا تدعوا الموسيقى تخفت فقد اعتادت أذناي العويل .. وألفتا اللحن الجنائزي الكسيح الذي ترقصون على انغامه .. ان الافعى في اعماقي بدأت تتلوى وتمد جسدها في جسدي .. اضحكوا .. انظروا الي .. لم اعد احس بشيء .. انها تنثر شعرها الاشقر على كتفيك .. وها هي ذي يدك قد تسللت الى الخصر النحيف لتطوقه .. وشفتاك تأكلان من الاذن الصغيرة وتهمسان ببعض الكلام .. وانا اعرف ماذا تهمس بأذنها .. انك تقول لها « تعالي يا حبيبتي الى الشرفة فالقمر بديع كوجهك المشرق » تماما كما قلت لي يوم زفافنا .. لم يخطيء ظني فقد خرجتما الى الشرفة .. لا ريب بأنك الآن تقبلها .. شفتاها تتململان وتتأوهان بين شفتيك .. وانا هنا زوجتك البلهاء .. مازلت في الركن المعتم ، وشالك الابيض كالكفن على كتفي وعنقي .. أود ان اصرخ .. ان اشكو .. ان اقول شيئا .. لا احد يحس بوجودي .. وكلماتي الملتهبة تنطفيء في حلقي الدامي .. حتى صراخي ، مبحوح اخرس ، مخيف ، كحشرجة وحش ذبيح .. كأنين انسان مشوه محترق .. الموسيقى تعول لحن (التابو) .. والعيون ترمقني .. اشعر انني سأنفجر واتطاير في الجو هباء ورمادا اذا لم افعل شيئا .. اذا لم اعبر عن عذابي .. اذا ظل البركان مخنوقا في صدري واللسان حبيس الضياع .. وتململت الافعى في اعماقي ورفعت رأسها بعنف .. وفجأة .. نهضت عن مقعدي .. وآلاف الصرخات البدائية تعول في دمي .. وانا خرساء ولكنني الآن امرأة ، مدمرة .. طاقة عجيبة تبعثرت في كل جزء من جسدي انني اسمع صدى لطبول وثنية في معهد ضائع في البراري .. صدى بعيدا يعلو ويعلو بعد ان تنعكس الاصوات على المذابح الحجرية المصبوغة بالدم .. احس ان رائحة البخور تعربد في صدري. وان الافعى بدأت تتلوى .. وايقاع الطبول يسرع ويسرع .. صوت ناي بعيد يتسلل الى ذراعي وصدري ويلف جسدي المرتعش كله .. ولكنني ما زلت واقفة .. جامدة .. وقد بدأت الافعى تثور وتتمرد .. ان يدا تسللت لترمي بالشال الى الارض وان قدما ارتفعت وداسته قبل ان تخطو الى الامام .. ببطء لذيذ .. شالي .. هدية الخطبة .. كفني .. تحت اقدامي .. لا .. يجب ان اجلس .. انني بلهاء وخرساء .. وتصرخ الافعى في داخلي : ولكنك امرأة .. جريحة .. انني اخطو الى الامام واحس ان لحن الناي الذي يتأوه ويتلوى قد تسرب الى جسدي وان الافعى بدأت ترقص بحبور غريب ..

وفجأة .. التمع في عيني بريق شيطاني عجيب .. وامتدت يدي بسرعة لتفك قيود شلالات من الشعر الاسود انهمرت بعنف على كتفي العاري وتناثرت بفوش غريبة .. وامتدت يدي مرة اخرى لتخلع

الحذاء وترميه .. خيل الي انه اصاب وجه زوجي وتلذذت بهذا الشعور .. الكل يحدق في بذهول وخوف .. لكن الموسيقى لازالت تعزف .. اشعر انني جميلة .. جميلة بثورتي وتمردي وجميلة بالشعاع الشيطاني المخيف في عيني .. بدأ جسدي يتلوى ويتمائل .. والافعى تطرب وتترنح .. كل جزء في جسدي ينطق بفصاحة خارقةمثيرة ..احس انني لم اعد خرساء .. وان عيون الرجال تلتهمني بنهم .. وان عيون النساء حاقدة .. مدهوشة .. كيف تحرك التمثال ؟.. كيف نطق الالم ؟؟.. وبدأت انضح عذابي حبات من العرق كانت تسيل على جبيني .. والافعى تتأوه بداخلي .. وانا ارقص بوحشية بدائية .. بحرقة .. بلوعة .. بعنف مذهل مدمر .. بفجور متمرد ، صدري المرتعش يعلو ويهبط .. ثوبي يكشف ساقي كلما درت ودرت محدثة اياهم عن الدوامة التي تسحقني .. انني انطق .. انطق باصابعي وبنهدي وبشعري المتطاير .. انطق بجسدي الذي يتمايل ويتوجع .. الافعى نشوى .. والفراغ حولي يضج ويهذي .. نظرات الجميع المحمومة تتحسس جسدي بوله وجوع .. وفجأة تعلقت نظراتي بك ياسيدي .. كنت تحدق بي برغبة جامعة مريرة .. كالكلب المسعور .. ولكنني لم ابال بك .. وظلت ارقص .. افرغت عذابي رقصا .. افرغت حقدي رقصا .. وصرخت وشكوت .. وتأوهت وانتحبت رقصا .. حتى استرحت .. ونامت الافعى بسلام .. واستيقظت النمرة .. خرست الموسيقى .. وانتهت رقصتي.

والتف الجميع حولك يهنئونك بزوجتك الحسناء وتفكر بالوليمة التي لم تخطر لك ببال .. بالمرأة التي استعادت مرحها .. وكنت تتعجل انصرافهم .. الجديدة اتي تقمصت زوجتك الفقيرة الخرساء .. بالجسد الذي ستنهشه الليلة لترميه في الصباح .. وابتسمت لك بسخرية غامضة .. وتحركت النمرة في اعماقي ثائرة وكشفت عن اظافرها .. ذهب الجميع .. وصعدت الى غرفتي وتبعتني كالثور الهائج .. كم هو لذيذ ان ارى الجوع المحموم في عينيك .. الالم المراهق في وجهك .. ولكن زوجتك الخرساء الذليلة ستنام منذ اليوم فصاعدا وحدها .. راضية .. متشفية .. ماذا ؟.. اتقترب؟لا ياسيدي لن تنهش بعد اليوم .. سوف يأتي الكثيرون .. وسيظل باب مخدعي موصدا .. وسأظل خرساء .. غامضة .. كأبي الهول .. لن انطق الا حينما ارقص لاثير عواء الذئاب .. ولا دمرك يازوجي الطفل الذي اعتاد ان يحصل على كل دميه يشتهيها .. واعتاد تحطيم الدمى ..

اخرج من غرفتي يا سيدي فقد بدأت النمرة تشرع انيابها وبدأت يدي تدفعك من دربي .. ما احلى الذهول والحيرة والعذاب في عينيك .. ما الذ رائحة الحريق من صدرك .. أجل .. انا زوجتك الخرساء الجميلة .. اطردك من مخدعي واوصد بابي ..

ها انذى الان وحدي .. انني اغمض عيني لانام

وفي حديقة القصر كانت هنالك افعى احاط بها خطر مهم من كل جانب .. فغرست نابها السام في بطنها وافرغت في نفسها كل مالديها من ذيفان مهلك .. ثم جمعت بعضها وانطوت على نفسها .. ونامت ..

وجمعت ما بقي من نفسي .. وانطويت على حقدي وسمي .. وحاولت ان انام .. لم استطع .. حاولت ان اصلي .. ولكنني .. خرساء ...

دمشق — غادة السمان

الخبز اليومي

قصة بقلم الدكتور محمد حاج حسين

نبض قلبي بشدة عندما بصرت بها جالسة قبالتي في القطار المسافر من القاهرة الى الاسكندرية . وكانت في ميعة الصبا امتازت بهذا الجمال الخمري اللاذ الذي يسطع على محياها الوسيم . وأخذت بعينيها الخضراوين الواسعتين تومضان بشتى الاحاسيس ، وتتألق فيهما براءة واضحة . والحقيقة ان جمالها يسكرك ، ولا تدري كيف يسكب لك هذه الخمرة التي تفعمك بالبهجة والمرح .

وكانت الدرجة الاولى خالية الا من قليل من المسافرين لا يتجاوزون عدد أصابع اليدين . وضاع عطر هذه الحسناء حتى أثمل الجميع . فالجمال قهار لا يعرف الا السيطرة . وسيطرت هذه الجميلة على اعصاب المسافرين ، فكانت العيون تتناهبها لتختلس منها نظرة فيها الزاد الذي يمتع الروح ، ويرهف الاحساس .

وفجأة تناولت سيجارة من حقيبتها ، وهمت باشعالها ، ولكنها لم تجد عود ثقاب ، فرنت الي ، وقالت بصوت فيه غنة موسيقية أخاذة : ممكن . تشعل لي هذه السيجارة .

وسارعت أشعلها لها ، وقد عراني شيء من الاضطراب وتمتمت : شكرا .

واستطعت ان اقول : هل تسمحين بتناول فنجان قهوة ؟

واطرقت قليلا ثم رفعت الي عينيها الخضراوين وقالت شكرا .

وناديت النادل ، وطلبت قهوة لي ولها . وما حست منها قليلا حتى سألتني : وماذا ستفعل بالاسكندرية ؟

– سأستأجر بيتا لتمضية الصيف مع أسرتي .

– وفي أي مكان ؟.

– في سيدي بشر .

– وكم عدد أفراد أسرتك .

– قليل .

– عندنا بيت في سيدي بشر مؤلف من اربع غرف وصالون .. هل يكفيك ؟ .

– وزيادة ! .

– عندما نصل الى الاسكندرية سأصحبك معي لتراه .. فان أعجبك ..

وقاطعتها قائلا : أعجبني .

– وكيف دون ان تراه ؟

ورأيتني أقول : يكفي ان يخصك ليعجبني .

وهفت حمرة على وجهها الخمري ، وابتسمت وغمغمت : أشكرك . انك ظريف .

ووصلنا الى محطة سيدي جابر بالاسكندرية ، وهبطنا من القطار ، واخذنا تاكسي ، وانطلق بنا حتى وصلنا اخيرا الى البيت الذي وعدتني بتأجيره . وقالت : هل أعجبك موقعه ؟ .

– أعجبني جدا .

– دعك من المجاملة .

– وماذا تريدين اكثر من هذا .. انه يطل على البحر ، وفي مكان هاديء ..

ورنت جرس الباب ، وفتحت امرأة في منتصف عمرها ، وصرخت : زيزي ..

وعانقتها بلهفة ، وغمرتها بقبلها ، ودخلنا معا ،

ويبدو أنها تذكرتني أخيرا ، فعطفت علي ، وقالـت لامهـا : الاستاذ سمير .. يريد أن يستأجرشقتنا ..

رحبت بي الام ، وجلست في الصالون . وبعد هنيهات ، جـاءت زيزي وقالـت : ألا تريد أن ترى الشقـة ؟ .

وطفت معهـا فـي الغرف ، وانا أحس بسعادة عميقة لا أدري من أيـن انحـدرت الي . وسألتني اخيرا : هل اعجبتك ؟

ــ جـدا ..

وقالت الام : وكم هي المدة التي ستمضيها فيها ؟ .

ــ ثلاثة أشهر .

ــ طيب .

ــ وكم تريدين ايجارها ؟ .

ــ كل شهر مئة جنيه .

ــ موافق ..

وبسرعة أبرمنا العقد ، وقمت متثاقلا أودعهما .. ولكن زيزي هتفت : مستحيل يجب أن تتغدى معنـا اليـوم .

ــ ولـكن ..

وقاطعتني : انني أدعوك الى الغداء . ويجب ألا ترفض ..

والتفتت الى أمها قائلة : سنتغدى سمكا .

ــ كما تريدين .

وفي هذه اللحظة اندفع اربعة من الصبيان اكبرهم في الثانية عشر من عمره ، من الخـارج يتدافعون ويتقاطرون حول زيزي ، واخذت تستقبلهم سعيدة ضاحكة وقالت لي : أقدم لك اخوتي ..

وتحـدثت معهم .. وبـدو في منتهى الذكـاء والاشراق .. وقلت : انني أرى أسرة سعيدة .

والتمعت على ثغرها العندمي ضحكة مرة وقالت : لا تخدعك الظواهر .. انهم ايتام وفقراء .. ونحـن نضطر الى تأجير دارنا في الصيف للاستعانة بهـا على اعباء الحياة .

واطرقت متألما .. الفقر . الغول البشع الذي لم

واستطردت زيزي قائلة : انني احب البحر .. اعندك مانع في قضاء بعض الوقت هناك حتى يحين موعد الغداء ؟ .

ــ وانا مثلك احب البحر ..

ــ عن اذنك لحظـة ..

وجلست أثرثر مع الصبية ، وبعد ربع ساعـة رأيت زيزي أمامي ، وقد لبست « مايوه » ازرق ، تألقت فيه كعروس البحر التي زعمت الاساطـير ما زعمت عن فتنتهـا . وجلست بقربي ، وتتابعت أنفاسي ، وقالت : ان البحر يناديني .. وانا ولدت على شاطئه ..

وخرجنا ، وهي تتهادى في هذا المايوه الفاتن ، حتى استقر بنا المقام علـى الشاطيء الساكن الا من بعض الصبية والاطفال يقفزون بمرح . فموسم الصيف لم يبدأ بعـد .. وازدحمت بها الفرحة وهي ترمي بنفسها في البحر الهاديء ، حتى اذا أمضت قرابـة نصف ساعـة تمتطي متن المـوج الرهو .. خرجت تتهادى بقامتها المغنـاج ، وقد علقت على جسدهـا الاملود قطرات الماء ، مما سبغ عليها سحرا جديدا .

واستلقت على الرمال الوعثاء تتمرغ في الشمس ، ثم خفت الـي وجلست بقربي وجـاء النـادل ببعض المرطبات ، فاحتست قليلا ، ثم فجأة تنهدت .. وبدأ عليها الحزن .. وقالت : أكاد أختنق .

ــ أتريدين أن نعود الى البيت ؟

ــ ليس الآن ..

وهام علينا الصمت .. ثم رأيتها تعتمد راسهـا بين يديها ، في اطراقة أليمة ، ورأيتني أقول : ما معنى هذا الحزن ؟. ان الحيـاة تضحك لـك . ورفعت الي عينين جالت فيهما الدموع وقالت : وهل تعتقد جديا ان الحياة تضحك لي ؟ .

ــ بكـل تأكيـد .. فانت أجمـل من رأيت .. وأعذبهن ..

وقاطعتني : انني أتعس امرأة في العالم .. ان هذا المكان سر شقائي .. ففيه عرفت زوجي .

واختنقت الكلمات في حلقها .. ولكنني قلت : وهل أنت متزوجة ؟ .

ـ نعم .

ـ لا لا بد ان يكون زوجك سعيدا بك . انني أغبطه ..

ومسحت دموعها بذراعها البضة وتمتمت : سأطلقه .

ـ ولكن .. ما السبب ؟ .

وحدقت بي ، وحاولت ان تبتسم ، واستطاعت أن تقول :

لا أدري كيف وثقت بك .. انك طيب ..

وارادت أن تقول شيئا .. ولكنها سكتت . وطفقت أتأمل البحر ، وفكري يحوم حول هذا الزوج الارعن الذي لم يستطع أن يقدر هذه الثروة من الجمال والسحر واللطف والرقة .. وأخرجني صوتها من تأملاتي : اسمع .. يجب ان أفضي لك بسري ، والا قتلني .

ـ سأصغي اليك بكل جوارحي .

ـ لا أعرف كيف اخترتك دون الناس أجمعين لاحدثك بمأساتي . اني لن احدث أمي بها .. سأطلب الطلاق دون أن أذكر لها السبب .. في الصيف الماضي .. على هذا الشاطيء الجميل رآني زوجي .. ففتن بي ، وكان يأتي كل يوم الى هذا المكان ليجلس على هذا النضد يتأملني وأنا أسبح ، وأتهادى على الشاطيء كان لا يبرح مكانه حتى أغادر الشاطيء .. وذات مرة رأيته يتبعني ، وأنا ذاهبة الى البيت .. ولا أكتمك أنني أخذت به ، لانه شاب وسيم . وانا فقيرة .. ونعيش على معاش ضئيل تركه لنا والدي . وهو.. رأيناه ذات مساء في بيتنا يقدم نفسه لوالدتي . انه مثقف وافر الثراء .. وطلب يدي . وكانت فرحة العمر بالنسبة لاهلي الذين ما كانوا يحلمون بهذا العريس . وأنا .. وجدت فيه كل آمالي التي خفقت في قلب عذراء في السابعة عشر من عمرها .. وحلمت بذلك اليوم الذي أصبح فيه زوجة له أقاسمه الحياة، وأنعم معه بهذا الثراء الذي حرمته . وتم زواجنا رغم معارضة أهله الذين كانوا يأملون بتزويجه بفتاة من طبقته . غير ان حبه لي استطاع أن يكتسح كل العقبات .. ولهذا تضاعف حبي له ، ووجدت فيه الحلم الوردي الذي طالما طاف بمخيلتي . وكانت فترة خطوبتنا قصيرة ، ووجدت فيه الخطيب المثالي .. أسكرتني كلماته العذاب التي كان يسكبها في أذني ، وحلقت بي في عالم وضيء ، واعتزمت أن أكون له الزوج الوفية التي لاهم لها سوى اسعاده ..

وانتقلت الى بيت الزوجية . تصور فرحتي وأنا أنتقل الى « فيلا » فخمة ازدانت بأفخر الاثاث ، وتأنق فيها « الديكور » حتى بدت كأنها جنة صغيرة .. في اجمل شارع في القاهرة . وشكرت الله الذي رزقني بهذا الزوج الفذ . وامضينا شهر العسل كأنه انطلاق وحب وسعادة . كان يأخذني الى أماكن اللهو الراقية ، والمنتديات العظيمة ، والمصائف الجميلة أتهادى بسيارته الخاصة .. وينتقي لي أفخر الثياب وأغلاها .. وبدوري أصبحت لا هم لي سوى توفير راحته واغداق حناني عليه . وسعدنا معا . ولكن هذه السعادة ، ـ لسوء حظي ـ كانت في عمر الوردة وفجأة وضحت حقيقته وكرهت حياتي ، وتلهفت على الموت لينقذني منه .

والتقطت دمعها .. وتنهدت بأسى . وأطرقت متألما لهذا الجمال المعذب .. وقلت : لماذا لا تكونين واهمة في تصوراتك عن زوجك ؟.

ورنت الي ، ثم اشاحت بوجهها عني ، وبدا أنها تريد أن تتكلم ، ولكن الكلمات غصت في حلقها ، وتهدج صوتها وهي تقول :

فظيع .. فظيع .

ـ انك تبالغين في هذه الفظاعة .

ـ انت لا تعرف شيئا عنه .

ـ وهل بدأ يكرهك بعد شهر العسل ؟

ـ يا ليت .

ـ اذن ما ذا ؟

ـ ازداد حبه لي الى درجة بعيدة حتى اصبحت لا أتحملها .

وضحكت ، وهتفت : أمرك غريب .. هل هنالك زوج تتضايق من حب زوجها . ألم أقل لك انك واهمة في كل تصوراتك . ان زوجك ممتاز .. وأنت تتدللين عليه ...

وهزت رأسها فتناثر شعرها الفاحم على كتفيها المتوهجتين ، وتمتمت : ازداد حبه لي حتى أصبح خادما لي بكل ماتحمل هذه الكلمة من معنى . فهو يأبى أن يغادر البيت ، ويذهب الى عمله بحجة أنه لم يخلق الا ليكون خادما لي . وأكثر من هذا انه يبدي لي تذللا مهينا ، ويتمرغ تحت قدمي ، ويقبل حذائي . ويقول لي : لذتي في خدمتك يازيزي . ولما صارحته بأن هذه الاعمال امتهان لشخصيته . قال لي : ليس لي أمل في الحياة سوى أن أخدمك . وصرخت : أنا التي يجب ان تخدمك يا يوسف .

وحاولت ان اقنع نفسي أنه يفعل هذا بدافع حبه لي . ولكن الايام أوضحت لي أنني كنت مخطئة الى حد بعيد . انه يأبى على الخادم أن تغسل ثيابي، حتى انه رآني ذات مرة أغسلها بواسطة الغسالة الكهربائية فاندفع الي قائلا : أرجوك ياحبيبتي . انك لم تخلقي لهذا . ونظرت اليه متألمة ،ولكنه انتزعها مني ، وبدأ يغسلها بيديه في عناية . وتكاثرت همومي عندما رفض أن يسمح لي أوللخادم بالطبخ معللا هذا بأن حبه لي يدفعه الى تقديم هذه الخدمات ، وأفهمته ان قيامه بها يطعنني في الصميم ، ويجرح أنوثتي ، وأوضحت له أن الرجل خلق لغير هذا ، ولكنني كنت كمن تتلمس النجوم في الظهر ...

ولكنني لم أحقد عليه لانني أحبه وأتمنى له الخير .. ولكنني مع الايام أصبحت لاأطيق أن أراه . وكلما أبديت له رغبتي في الانفصال عنه جأر ببكاء شديد ، وجثا على ركبتيه ، وقبل رجلي ، وبللها بدموعه وهو يقول : ارحميني يازيزي . انني أموت اذا انفصلت عنك . وتحملته على مضض لانني في الواقع كنت هازلة عندما زعمت له أنني سأنفصل عنه لانني كنت أعبده . ورحت أسدي اليه النصائح ، وأنتظر الايام عساها تشفيه من هذا الداء الذي يعانيه .

وسكتت زيزي . وشحب وجهها وقلت : وماذا بعد .؟

وظللت وجهها بيدها كأنها تود أن تحجب عنها منظرا بشعا تراءى لها .. ولكنها تماسكت وقالت بنغمة حزينة : ذات مساء جاءني بساعة من الماس ، وقدمها الي هدية . وفي اليوم التالي نفحني بمعطف من الفرو الثمين ، فشكرته في حرارة . بيد أنه أقترب مني ، وقد شع في عينيه بريق غريب ، ودفن رأسه بين أحضاني وقال : لي عندك مطلب يازيزي .

ــ أنت تأمر يايوسف .

ورأيته يرتمي على قدمي ، يقبلهما ويقول : أرجوك أن تضربيني . ارفسيني برجليك الجميلتين .

وخيل الي أنه فقد عقله ، فتوجست خوفا ، ودفعته عني بلطف ، ولكنه تهافت علي باندفاع عجيب ، وطفق يتوسل الي بلهجة باكية لاضربه واخيرا فقدت اتزاني ، وانهلت عليه ضربا وجيعا بقدمي ، وهو يتململ امامي ، وقد مازجته فرحة عجيبة . وأمعنت في ضربه تشفيا من أعماله حتى كلت قدماي ويداي ، وبرح بي التعب .وتركته ونظرت اليه .. ولعجبي وجدته فرحا سعيدا منتشيا من هذا الضرب القاسي . ورشقني بنظرات تفيض بالعرفان الجميل ، وتمتم : ماأسعدني بك يا حبيبتي .

وثرت على هذه السعادة التي رأيتها تضيء ملامحه ، فانهلت عليه ثانية بالضرب حتى دميت يداي . وكنت أنتظر أن يتوجع ، ولكنه بالعكس كان سعيدا تلتمع في وجهه راحة عجيبة . وازدادت نقمتي عليه وبصقت في وجهه ، وهرعت الى غرفتي، وأوصدت الباب ، وبكيت بكاء مرا . وتأكد لي أنه مجنون . واعتزمت الخلاص منه . ولما أنبأته برغبتي في الانفصال النهائي عنه بكى كطفل فقد لعبة عزيزة عليه . وقال : ماذا ينقصك يازيزي ؟ ألا

أوفر لـك كـل ألوان الترف ؟.

وثرت عليـه ، واتهمتـه برجولته ، فبكى .

وانكب على قدمي يقبلهما ، ويتضرع الي حتى لاأقضي على حياته . وانداحت بي الشفقة عليه . وقلت له: لن أتركك يايوسف .

ـ أنا مدين اليـك بحياتي ..

وخرج الى السـوق ، وعاد بعد قليل ومعه مجوهرات غالية وثياب فخمة ، ولكنني لم أهتم بها ، وألقيتها جانبا . كنت أتمنى أن أعيش في الفقر المدقع ، وأنا أرى زوجي رجلا .. ولكن ماحيلتي، وهذه قسمتي في الحياة .. وفجأة رأيته يندفع الى الخارج ، ويعود بعد قليل حاملا عصا غليظة ، وقدمها لي . وقلت غاضبة : لماذا هـذه العصا ؟

ـ لأريد ان تدمي يديك بضربي .

ـ ماذا تعني ؟.

ـ اضربيني بهـذه العصا .

ـ لاشـك انـك مجنون .

ـ أبدا . انني في تمام عقلي .

وهممت بمغادرتـه ، ولكنه تشبث بي ، وراح يتوسل الي لاضربـه . فزعقت بـه ليتركني . وبكى بكاء مرا ، فنقمت منـه هذا الضعف ، وأخذت العصاء وانهلت عليه ضربا قطيعا لاشفي غيظي منه اذا كلت يداي احتضنني بقوة ، وصرح : ما اسعدني فيك يا حبيبتي.

وباختصار اصبح الضرب بالعصا جزءا من حياتنا اليومية انه يسلخ وقته في المطبخ ، وكنس البيت ، وغسل الثياب ثم بين الفينة والاخرى يهرع الي ، ويرتمي على قدمي ويتدلل لي لاعطيه خبزه اليومي كما يسميـه . . وهو الضرب بالعصا ... وبدوري اعتدت على ضربه حتى استمرأت هـذه العمليـة . وكنت أقوم بها بحركـة آلية دون تفكير . وهكـذا أصبحت حياتي سلسلة متصلـة من العـذاب . ووضـح لي اخيرا انـه مجنون ، ولهذا عدت الى الاسكندريـة ، ولـن أعود اليه حتى لو ادى الامر الى الانتحار ..

وارسلت تنهيدة عميقة واردفت : هذه مأساتي. أرأيت مثلهـا في الدنيـا ؟.

وقلت : كثير .

ـ ماذا تعنـي ؟.

ـ بصراحـة .. أتحبينـه أم لا ؟.

ـ أصبحت أكرهه حتى الموت .

ـ انـك لاتزالين تحبينـه .

ـ ولكنني لاأطيق العيش معـه .. انه مجنون ..

ـ أبدا انـه مريض فقط .

ـ وهل هنالك ثمـة أمل في شفائه ؟.

ـ طبعـا .

ـ وكيف ؟ .

ـ انـه امانـة في عنقك . ويجب ان تبذلي كل جهودك ليعود اليـك رجلا سويا .

ـ انـه مجنون ..

ـ ابدا . انـه مريض بمرض يسمى الماسوكية .. وهو حب تعذيب نفسه . وقـد يكون هـذا المرض ولد معـه ، أو يكون قـد اكتسبه في صباه الباكر مـن جراء تربيـة غير سليمة . وعلى كـل يجب أن تعالجيـه .

ـ وكيف اعالجـه ؟.

ـ تقنعيـه بالتردد على عيادة طبيب نفساني ، وهو الكفيل باستئصال هذه العقدة مـن نفسـه . وقـد يستمر العلاج زمنـا طويلا ولكنني اعتقـد انه سيتخلص منـه بالنهايـة .

وربتت على يدي ، وهتفت : لاأعرف كيف شكرك لانـك أعدت الي الحياة لانني لاأكتمك رغم كـل شيء لازلت أحبـه . سأضحي بحياتي لانقاذه .

ـ هـذا واجبك ..

ـ ومتى تعود الى القاهرة ؟ .

ـ هذا المساء

ـ سأعود معـك ..

وأشرق وجهها ، والتمعت عيناها ، وسرحت ببصرها في الافق البعيـد .. انها ستنتصر ، وتنقـذ زوجها .

محمد حاج حسين

كيبلنغ

ترجمة : محمد سعيد الكيلاني حماه

أصبح كيبلنغ في الثلاثين من عمره مشهورا . لا في انكلترا والهند فحسب ، بل في كل العالم الناطق بالانكليزية . وكان قد كتب كثيرا من الشعر البراق ـ السطحي ـ وبعض القصص المؤثرة . كما كتب وصفا لرحلته حول العالم ، وقصتين اخريين . وفي الثلاثين أرسل الى انكلترا .

ووصل في اول الامر الى مكان وصفه بأنه مكان الوحشة .

وفيما بعد ارسل الى (كلية الخدمات المتحدة) قرب بيتفولد . وهنا أساس قصة (ستيلكي وشركاه) اذ وضعت عندما قامت صداقة بين اثنين من رفاق المدرسة (بيرسفورد) و (دنسترقيل) .

وقبل وقت قليل من بلوغه سن السابعة عشرة وفي ۱۸۸۲ ترك انكلترا ليصبح المحرر المساعد (لمجلة الشرطة والامن العام) في مدينة لاهور .

وفيما بعد انتقل الى مجلة الرائد في (الله اباد) وقضى سبع سنين في رباط وثيق مع والديه الحكيمين الحسني الثقافة . ولكنه عاش في حرية تامة . وكان يتردد على (نادي البنجاب) حيث كان يلتقي بالضباط والمهندسين ورجال السكة الحديدية ، وموظفين مدنيين . اولئك الذين اكتسب منهم المعرفة القيمة الدقيقة التي ابداها في كتابته .

وفي لاهور انعطف على حياة الثكنات . وعرف مساكن المتزوجين المحدقة بالثكنات واخذ يعرف القيل والقال وحياة الليل . وهنا بدأ يكتب أناشيد الدوائر الرسمية والقصص البسيطة عن التلال .

وهذه المؤلفات حسنة على الرغم من الثرثرة المليئة بها . وهي تعكس لنا الحياة الخاصة للانكليز الذين استوطنوا الهند .

في اغلب كتاباته افراط عاطفي وقسوة ، تقابلهما حياة وقوة .

وبعد سنوات سبع في مدرسة الصحافة القاسية شرع كيبلنغ في رحلته حول العالم : بورما ، اليابان ، سان فرانسيسكو . هذه النظرة الى العالم شفته من شغفه بالتجول لمدة معينة . وسرعان ما استقر في لندن قرب (ستراند) ، حيث عاش يأكل النقانق ، كل وجبة بفرنكين . وكان يطرب لما يشاهده في القاعات الموسيقية وحياة المدن الكبيرة المثيرة . واصبح مشهورا بصورة سريعة مفاجئة . وادى به النجاح الى اماكن اهدأ واصبح عضوا في نادي (سافيل) . اذ اجتمع بالمشهورين من امثال : (هاردني و بينت و كوس) .

ثم طفق في الرحلة مرة اخرى الى: ايطاليا ، استراليا ، نيوزلنده . وليلقي نظرة اخيرة على الهند قبل عودته الى انكلترا ۱۸۹۲ ليتزوج من (كارولين ستار باليستين) .

وكانت له فيما بعد رحلات اخرى . واقام اربع سنوات في انكلترا الجديدة بشمال شرق امريكا ، حيث انتهت (كتب الادغال) . وكتب (الرؤساء الشجعان) . كما كتب عددا من الكتب والقصائد القصيرة .

كل تجاربه التي اكتسبها ، من الهند والامبراطورية والبحر وحياة لندن ، كمنت وراء كتبه هذه ، وعاشت فيما ألفه في هذه الفترة .

وفي عام ۱۸۹٦ عاد وزوجته الى انكلترا وكتب (كيم) . ثم زار جنوب افريقيا ووسكس .

وباستثناء زياراته التي تكاد منتظمة الى جنوب افريقيا ؛ فقد عاش عيشة هادئة الى ان مات ١٩٣٦ .

تهتم بواكير مؤلفاته في الشعر والنثر ؛ بوصف حياة الانكليزي الذي عاش خارج انكلترا ؛ تلك الحياة التي لم تكن قد نالت الاهتمام الذي تستحقه في نظر

كيبلنغ . وقد تطلع حوله في لاهور فوجد مادة غنية خاما اهملها الفنانون والصحفيون ؛ استهوت اكبر عدد من الشعب .

والذي انتج معظم مؤلفاته الاولى ، كان موضوعه يتركز على البناء المهتم ببناء الامبراطورية ؛ الذي تبنى دعوة فدافع عنها ؛ والصحافي الذي يحاول ان يقص قصصه ، والفنان الذي عنده دوافع للابداع ان يبدع من حقيقة خبرته عن تجربته غير العادية .

كل هـذه الصفـات انتجت كتاباته الاولى . وقد وضع في خريطة ادب الانكليز القاطنين في الهند : في عملهم ولهوهم وثرثرتهم ؛ وفي الثكنات ؛ وصور بنائي الجسور والبيـوت ؛ واهل الهنـد انفسهم في الوانهم الزاهية المتنوعة ؛ مجموعة من الصور الفقيرة القوية عن الجالية الانكليزية في الهند . وكان الموضوع جديدا واستهوى عددا كبيرا من الناس .

وصف كيبلنغ الحياة كما هي في الكتب الاولى ؛ مستعملا نغمة خشنـة . واستعمل عـددا كبيرا من الكلمات العامية . ونجد نفس النسبـة في (اشعـار غرف الثكنات) و (الجنود الثلاثة) .

وفي هذه المؤلفـات يرتكز على الجندي الانكليزي القديم ؛ كاهم نقطة ارتكاز الحضارة الانكلوهندية .

وبعد (سوينبرن) و (روسيتيز) و (وموريس) كان يسأل : ماذا يجب أن يعرف عن انكلترا اولئك الذين يعرفون انكلترا وحدهـا ! وعندئذ ؛ يخبر بتفصيـل واعمي وتوحـش واسع ؛ عن جميع ما كان يحدث للانكليز في تلك الاراضي البعيدة .

كانت الكتابة سوقية سهلة التعبير في الغالب ، غير انها كانت تحوي دائما شعورا انسانيا . هذه الكتابة استمالت تلك المشاعر المنتشرة ؛ والتي كانت شائعـة بين عدد من الرجال والنساء ؛ خاصة في انكلترا بـين ١٨٦٠ ـ ١٩٠٠ اي أن هـذا الشعور كان محببـا الى الناس .

والاشخاص الذين يقدمهم كيبلنغ ، بما فيهم الجندي الشجاع (مولفاني) بطل الحروب الافغانية الاخرى ؛ الذي لم يشد حتى ذلك الوقت بذكره احد ؛ هذا البطل بسيط حسن . وهو الارادة المطيعة لدعوة الاستعمار . الدعوة التي منحت العروق الاخرى النظام والمدنية .

ان الناقد يجد مجالا كبيرا لنقده في اسلوب بعض قصصه . ولكن في هذه القصص شيء من صفة التسلط على عقولنا ومشاعرنا كما تفعل الاساطير القديمة .

اما قصصه الاخرى ؛ فهي قصص عاطفية ؛ واحيانا مسرحية رخيصة كقصة (حب النساء) . و (الرجل الذي سيكون ملكا) هي من ابدع القصص التي كتبت في اي عصر .

ورحلة كيبلنغ الى لاهور اثرت في كتابته ؛ واتسع تفكيره ؛ فجعل كتابته تعبيرا عن الفلسفة الاستعماريـة بمعناها الكامل . فخلد ذكر حروب بورما في (قبـر المئـة شخص) . كما خلد السودان وحروب جنوب افريقيا ايضا .

وقد اشاد ببحارة بريطانيا الذين كانوا يجتازون البحار السبعة في قصائد عدة .

ان اشعارا من هذا النوع ؛ والقصص التي جاءت في (مجموعة اعمال اليوم) وقصة (القادة الشجعان) هذا النـوع يرتكز الى افكار كانت قـد بثت في عقل كيبلنغ . وهي اعتقاد : ان الحياة افضل ما تكون واشهى عندما يقوم الرجل بممارسة العمل الذي يتقنه افضل اتقان وممارسة .

فالانسان الصانع ـ كما يدعوه كيبلنغ في شعـره الممتاز : ترنيمة ـ هو شخصية مثابرة جريئة . تتمثل في تلك القصائد والاشعار .

ان وصف مناظر الصيد ، على مقربة من الخليـج العظيم لـ (نيوفاوندلاند) في (القادة الشجعان) يعطى للقصـة قوة تعوض عن نقـاط الضعف فـي وصف الشخصيات . (وكتب الادغال) المشهورة التي كتبت في هـذه الفترة ايضا تمثل قـدرة كيبلنغ بتصويره قصصا خرافية للهند بغاباتها السوداء ، وحيواناتهـا الضارية الحكيمة التي تقطن تلك الغابات .

وان اسلوبه المتين الاكيد في معالجته لهذه الحيوانات ولسكان الهند الاصليين ؛ لا تظهر كمـا هي في قصة (تومس صاحب الفيلة) ؛ بل وفي قصة اخرى يعتبرها بعضهم افضل مـن قصة (كيم) . وهي كتـاب غني

يرضي الناس . كالطريق العظيم الرئيسي الذي يقود اليه الجندي في قصة بطلها (كيم) .

وبالاشارة الى هذا يقول كيبلنغ : (ان جميع الطبقات والناس تمضي على هذا السبيل . يسير هنا ارستقراطيو البراهمة ، واصحاب المعارف ، والتنكجي والحلاقون ، والحجاج وصانعو الخزف . ان العالم كله يأتي ويمضي) .

وفي هذه الفترة يصل ايمان كيبلنغ بالاستعمار اوسع صور التعبير . فعبر عنه بقصائد مثل (عبء الرجل الابيض) (الترنيمة قبل القتال) (المناجاة) .

وكانت الناحية الهزلية في كتابته قد اختفت تماما ، تاركة المجال للتعبير بصورة مؤثرة عن فلسفته .

قد لا نعتقد الآن مع كيبلنغ بضرورة فرض السلطان البريطاني على الناس لحفظ السلام . ولكن علينا ان نعترف بالقوة التي يعبر بها كيبلنغ عن فكرته . وقد كان لحرب البوير اثر كبير في زعزعة ذلك الاعتقاد ، بان الرجل الابيض يجب ان يستعبد الرجل الابيض . ولكنه تراجع بانتظام .

وفي (بورشن) و (سيسكس) وجه انتباهه الى قلب الامبراطورية التي كان قد ايدها بجرأة متحملا الكثير من النقد . فاصبحت مقاطعة ساسكس المشرفة على البحر ، هي التي خلدها في افضل اشعاره وكتاباته النثرية .

وكتابته في مؤلفاته المتأخرة اقل تكثيفا . وفيها كثير من الرشاقة والسحر . وهذه الرشاقة اكثر من الاثارة في كتاباته .

ولقد زايله اليقين الذي تميزت به كتابته الاولى ولم نعد نجد ذلك الشخص الواثق من العالم . ولكن نجد الرجل الفيلسوف الذي ليس لديه يقين او اعتقاد بأي أمر . وفي كتابه (مكافآت وجنيات) استوحى كيبلنغ مصدرين :

الاول : نشأ عن ادراكه باستمرار تاريخ اللغة الانكليزية . ذلك الادراك الذي بعث فيه نشوة . وتاريخ انكلترا هو تقاليد قديمة عريقة لم تتوقف .

الثاني : توسعه في الاعتقاد بالضرورة المطلقة لوجود حكم متمدين . كان يعتقد ان منحه المدنية التي تقدم لشعوب الامبراطورية قد ارست جذورها في ماضي انكلترا العريق بالوطنية والاخلاص للبلاد . والسور الذي كان يدافع عنه البطلان بارنسيوس و بارتيناكس، ضد البرابرة المهاجمين ، هو رمز لتلك المدنية . واذ اعلنت الحرب عام ١٩١٤ رأى كيبلنغ ان الالمان كانوا بين الشعوب التي ارادت الرجوع بالشعوب الى الهمجية .

واستعمل كل مقدرته الادبية لاثارة الناس ، كي يدركوا عظيم الخطر . ولكنه في سنواته الاخيرة ، كان غالبا مايبعث بقصائد جديدة ، فيها ترديد للنغمة الحربية القديمة . غير ان قلبه ماكان في وقت من الاوقات متفقا مع الحرب واذا اردنا العثور على أفضل ماكتبه في الفترة التي تلت حرب البوير ، فعلينا ان نلتفت الى القصائد التي تعالج انكلترا .

نجد كيبلنغ في هذه القصائد قد حرر نفسه من ذلك الجرس الرخيص . كما حرر نفسه من التبجح الماضي . هاتان النغمتان تعبران عن حالين متباينين في مؤلفاته الاولى . هذه الفترة هي التي كتبت فيها قصائده المشهورة (طريق الغابات) و (قصيدة السحر) وقصيدة (أغاني القيثارة للمرأة الدانيمركية) و (ساسكس) . وفي جميع هذه القصائد وسواها ، توجد صفة هادئة وعميقة .

وفيها شعوره الشخصي الذي عبر عنه في النهاية عن طريق الشعر لا النثر .

وعند محاولتنا تقدير مكانة كيبلنغ الصحيحة، علينا ان نتذكر : بأن ماكتبه هو قبل النضج . وفي كتابته هذه نجد ذلك الحماس الغامر الجامح الذي يتميز به الفتى الجامح .

وفي الواقع فانه يعبر عن صفه رجل صحافي لم يتمكن ان ينقذ نفسه . ونقطة الضعف الاساسية

فيـه هي تأييده لعدوان الاستعمـار ، واعتقـاده بمظهر سياسي : هو مظهر الاستعمـار الـذي كان ينادي بعظمتـه بصوت أعلـى ممـا يجب وتكرار أكثر ممـا يجب .

وهي ما يسميـه الناقد (سكوت) : بأنه ذالـك التعصب المحدود في عطفـه علـى مايسميه الناس وطنيـة . هذا التعصب كان سيولد رد فعل بالطبع . فيه خشونة وتهويش في النغم والكلام ، كاستعماله للغـة السوقيـة بلندن ، واستعمـاله للهجـة الارلنديـة كحيلة فـي الكتابـة ، بدلا مـن ان تكون تطورا طبيعيا ، بخـلاف هاردي . عندما يجعـل اشخاصه الريفيين يتحدثون . ويعتبر نفسه من صلب ذلك الشعب الريفي الذي احبـه . ومع هذا كله ، فان كيبلنغ وصل القمة وانحدر الى الحضيض .

وعندما يصل الهوة لانجد من يدانيـه فـي خشونتـه وسخف تفكيره . هذا التفكيـر الذي كان يرافقـه مقدرة آليـة على التعبيـر .

ولكن فيـه الناحيـة الاخرى عندمـا يكتـب كتابتـه الاخرى . فمجال فنـه الشعري يصبح واسعـا وقنوعا . ويكشف عـن اتقان تـام لفن كتابـة القصة القصيـرة .

ويـندر ان يعجز عـن الوصـول الى التأثير المقصود . وأحيانا يصل الى أسمى قمم التعبيـر خاصـة فـي كتابته المتأخرة . وللتأكـد مـن هذا ، فعلى القارىء الرجوع الى قصيـدة (طريق خـلال الغابـات) (أغاني قيثـارة امرأة داينمركيـة) . ان كيبلنغ يستعمل الكلام في قصته (كيـم) بصـورة سحريـة . كمـا يستعمله فـي قصـة (كتب الغابة) وبسبب استعمـاله السحري للكلمات يمكن ان نغفر لـه السيئات .

محمد سعيد الكيلاني

حديقة الكآبة

بقلم . ياسين رفاعية

((الى ليلى ذكرى لقاء عابر))

تنحدر نجمة ملتهبة . لتحط في وادأخضر . فتتعرى أوراق أشجاره فجاءة ، وتيبس العيدان وتموت الاغنيات التي كانت تملأ السماء .

ينقلب الوادي الى صحراء منعزلة . تلتهب رمالها بشمس قاسية شرسة ، ومن ثم ، يخترق الليل الغرابي احساسي فتنمو فيه شجرة الكآبة ، وغبش ما . يحجب عن عيني المرئيات الضوئية الضاحكة . اذ ذاك تمتد سكين ذات نصل حاد ، فولاذها يتقلص ويمتد حسب ارادة قوية تسيطر عليها كأنها مخلوق وحش ، وتنغرز في لحمي الذي ماعرف الطراوة في حياته قط ، وثمة أرض صلبة كانت تشدني اليها في بعض الساعات ، فأغفو من ارهاق شديد لتبتلعني أفعى ضخمة ذات فحيح مرعب من الاحلام . هكذا أصبحت أحلامي منذ انحدرت نجمة ملتهبة احرقت واديا اخضر كانت حديقة الفرح في وسطه .

واعتاد احساسي الداخلي تلمس تلك الاحلام المرعبة في ليلي الغرابي الاسود حيث لاسماء . لأفق ممتد . عالمي سقف من الاسمنت المسلح . وجدرانه منتصبة لا نوافذ لها ، مخنوق ، لاشيء يغني فيه . جاءت يد عملاق مخيف . أصابع تلك اليد ، متشنجة



طويلة ، أظافرها حادة متقوصة تخنق كل حنجرة فيها صوت عذب .. عينا العندليب سقطتا في تلك الصحراء . حنجرته تمزقت ، وهي تغني بحشرجة حزينة .

في قلب تلك الصحراء ، انشقت هوة عميقة لاقرار لها ، وفرت الاشياء الجميلة من الحديقة الميتة ، سقطت في تلك الهوة وهي تصرخ بأصوات فيها رعب مخيف . كانت يد العملاق تهب وراء كل المخلوقات السعيدة لتدفعها الى تلك الهوة .

قلبي هوة سوداء ، لاشيء يسطع في أعماقها .

اللؤلؤة التي كانت تبرق فيه . انخطفت منه بجناحين أسودين وعينين حلوتين شربتا كل طاقات احساسي العميق ، وثغرها أخذ من الحديقة كرزها الاحمر القاني قبل ان تقحل ، وعنق حمل من الجبل ثلجه الابيض الناصع قبل ان ينحدر في الهوة الصحراوية .

لست ادري كيف انفلتت اللؤلؤة من يد العملاق لم تسقط في الهوة ساعة رحلها ، صعدت علوا علوا .. حجبت الشمس المحرقة لحظة امتلأ العالم فيها بسمفونية لحنها أسيان يبتسم في مرارة ثم صعدت فوق مدار الشمس . ففرت الشمس متجهة الى الارض لتحرق العالم .

الشمس تقترب ، اشعتها نبال هندية حادة ، ذات نصال مسمومة محرقة ، رمال الصحراء تذوب . تتموج كبحر ملحه يهب الى العيون .

والرجل الوحيد الذي أحمله في خلقتي . ظهره مجذوب الى رمل ينصهر ، ووجهه المتعب يبحث عن لؤلؤة قلبه . اللؤلؤة ما زالت تنغرز في كبد الفضاء ، تحاول اليد المتشنجة ذات الاظافر المنثنية ان تطولها لاتستطيع . تعود الي . تهصر قلبي بغلظة ، شيء يحرقها ، تبتعد منكمشة اصابعها الى بعض .

الاشعاع . اشعاع اللؤلؤة ، عاد الى مكانه. الهوة السوداء يضيء ركنها يقول لي من أعماقي :

ـ العالم ذات يوم سيضحك ملء شدقيه ، ستعود الجبال تنتصب بثلجها الابيض . سيعود الكرز الى حديقتك المجدبة الكئيبة . ستعود حنجرة العندليب الى جسده ، فتشجيك الالحان الحلوة . عيناه ستستقران في رأسه ، سيبحث عن غصن قريب منك ، الهوة الصحراوية سينبع منها كل جمال العالم في اللحظة التي تبتلع اليد المتشنجة الشرسة الى الابد ، وتنغلق على كل حزن شربته عيون مخلوقات حلوة ، وسيقف بكاء الكون . ثم ينبت في رملها الاصفر الباهت واديك الاخضر حيث تنتصب في وسطه حديقتك .

وصوت الرجل المخنوق يتحشرج ..

« ـ ليس في قلبي الا الاشعاع ، لؤلؤتي رحلت الى عالم تخلق جماله من عينيها .. لن أراها بعد اليوم . الايام التي عشتها معها في الوادي الاخضر معدودة ، ولكنها ممتلئة .. بكت ظهيرة ذات يوم .. انا أبكيتها . جعلت دموعها تهطل باخلاص . لقد قلت لها جزءا من حياتي . حياتي كلها مفجعة . لافرح فيها . قصصت عليها قصة كانت تقتات أعصابي في سنين مضت ، قلتها بصدق ، وبكت اللؤلؤة بصدق .. واحسست ساعتها ان قلبي يشربها بعنف .

والى جانب نبع ماء رقراق ، قالت في ذلك اليوم ، ان ما تحس به . أحسست به أنا . لقد أحببت . واقترن الذي أحببته بفتاة أخرى. وظل قلبي له . قلت : لماذا لانلتقي . اذا كان كلانا قد مر بحكاية واحدة تنبع من الم واحد .

وسكتت اللؤلؤة ، كان بريق عينيها يلتمع في دموع خفيفة ، وكانت كفي تحضن كفها . ان وصوتا آخر .. صوت أمها حملها من جانبي الى حيث الجميع .. ولكن صورتها غاصت في أعماق الفؤاد » .

عاد اشعاع اللؤلؤة يقول :

ـ يكفيك أنا .. من اشعاعي ستطل على عالمك الجميل .

عالمي سأظل غريبا فيه . تعذبني ذكريات تمتص الضحك الذي سيملأ شدقي العالم . سأنعزل وحيدا . الصحراء لن ينبت فيها شيء اخضر ، ستظل محرقة ، يابسة الهواء ، الجمال ستظل غائصة في أعماق الرمال ، وسيظل العالم بساطا رمليا ممتدا ، لاتحركه نسمة ، وسيظل ظهري مشدودا الى رمل تصهره نار محرقة، وستظل عيناي تبحثان عن لؤلؤتي وراء كل ظل وخلف كل نجمة في كل فضاء وتحت كل سماء.. سأظل طول عمري الذي قد أعيشه منقبا عن لؤلؤة ماعرفت السعادة الا بجانبها .

انا رجل وحيد ، مذبوح من عيني ، دمعي دماء ، لاتهدأ عن التهطال ، ولؤلؤتي ذات يوم، كانت تملأ فراغي الرهيب بكنز من السعادة .

قبل ان تتفتح سماء قلبي لتشع لؤلؤتي فيها ماكنت الا حيوانا ذليلا ، يأكل . يشتغل ،يضاجع اثيل من المومسات . ينام منهوكا ، يمضي بآلية ، لايفكر . يستمع الى اغان تافهة ، يعرف حيوانات تافهة ، يسكر ببلاهة ، بعد ما يأخذونه بعض الاحيان الى السجن ، يخرج في صباح اليوم التالي بكفالة من رب عمله . رب عمله لا يستطيع الاستغناء عن يديه العجيبتين . قال عنه ذات مرة « انه عجيب .. يعمل أكثر من أي مخلوق عندي . لايتكلم كثيرا .. وعندما يتحدث . كلماته ثقيلة على من حوله » .

قبل ان تتفتح سماء قلبي لتشع لؤلؤتي فيها .. هكذا كنت .

كنت أيضا عاشقا فاشلا . أحببت واحدة .عيناها لون البن المحروق ، لم أكلمها قط .. لم أقل لها شيئا في حياتي .. تزوجت . واعتبرت ذلك خيانة لي .

هذه الاشياء كلها .. وأشياء أخرى مفجعة ، حدثت بها لؤلؤتي ساعة بكت باخلاص لمأساتي .

وعندما اطلت اللؤلؤة بعينيها الحلوتين ،وبثغرها الكرزي في واد أخضر نبع من أعماقي انسان رائع ، يحب الناس ، يحب العالم ، يفكر كثيرا ، يفرش طريقه ورودا ، يوشي سماءه نجوما متلألئة . يجذب الى صديقته كل الطيور المغردة يحمل في يديه عالمه السعيد ، يقول لجميع الناس: أنا سعيد ، حديقتي أجمل حدائق العالم .. النجوم لاتهوي فوقها .. الشمس تدفئها لاتحرقها

حديثه همس ، لهجته ناعمة ، الذين حوله اصبحوا يرتاحون لحديثه ، عاشوا في سلام ... وجوههم أصبحت تبتسم في وجهه . افتقده السجان حتى حسبه انه مات . لكنه رآه صدفة في طريق يشرق الضياء من عينيه . تساءل عن هذا الانقلاب الغريب .. ثم .. لم يصدق انه هو . قال له أخيرا : ذاك الذي أعرفه مات.. أنت شبيهه لاأكثر .. »

وتعتصر المرارة ، الرجل المشدود الى الرمل المصهور في صحراء تقترب منها الشمس بسرعة مذهلة .

الجسد ليس قابلا للاحتراق . ليته يحترق . انه احساس يلتهب ولا يفنى .. هذا عذاب من نوع جديد . احتراق .. احتراق حتى الابد .

لؤلؤتي

يصرخ الرجل المشدود الى الرمل المصهور . بصوت كله حرقة ، كله حنين .

ـ لؤلؤتي .. عودي الي .

ولا يلفه الا الصمت الرهيب ، ان جدرانا هائلة انتصبت الان حوله تسد عنه كل صوت ، وكان السكون الذي غمر عالمه كالموت .. عميقا .. عميقا .

ويشق الرجل طريقه . ان الهرم الذي أصابه فجاءة ، شد عظامه الى بعضها واحدودب ظهره . وبدا كأنه جمل على كاهله وزر مئات السنين .

لقد بدا له العالم بشكل جديد . لم يكن يعرفه من ذي قبل . والفجيعة التي أحس بها اللحظة ، هي كونه أصبح انسانا بما لهذه الكلمة من معنى . الاشياء الماضية التي كان يفعلها لم يعد بمقدوره ان يقوم بها الان .

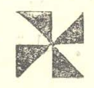
انه يحسس باحترام كبير لذاته على الرغم من الصحراء التي شددته اليها فان ذكريات الحديقة التي كانت تقطن قلب الوادي الاخضر في قرية تحضنها الجبال من كل جانب . ستجعل حلقه يبتل كلما شعر بالظمأ . انها ذكريات حلوة رائعة . سيظل بحبها في طريقه الى النهاية .

أحلى هذه الذكريات تلك التي صعد فيها مع لؤلؤته جبلا ممتلئا بالصخور . كانت يدها في يده . وكانت تتكيء عليه كلما اصبح الصعود صعبا . ثم انحدرا من الطرف الاخر الى الوادي الذي امتلأ بأشجار الكرز الملونة لجميلة . لقد أحس بدفء العالم من يدها .. ولقد تمنى ان يظل الانحدار حتى الابد . وان تظل يدها بيده لايفترقان .

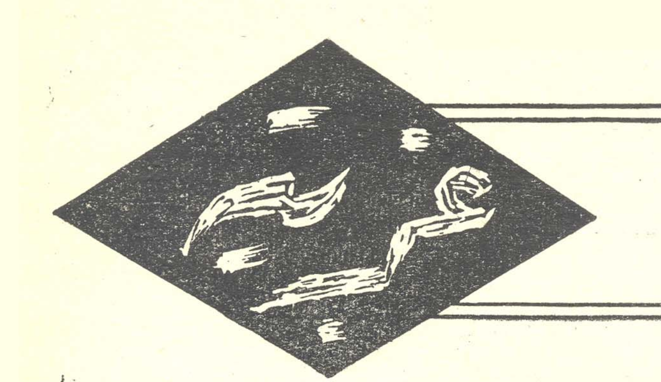
ويتأوه الرجل المفجوع !

ورحلت الان . ولم يبق الا الذكريات وبقية من شجون ، ومدينة الموت ستغيب عن ناظري حالما أغرق في صحرائي الابدية وأصبح ضائعا بين هضبات الرمال تمحو الرياح خلفي كل أثر لي .

دمشق – ياسين رفاعية



مُناقشَات



كيف كتبت الساعة الخامسة والعشرون

«كونستانتنان فيرجيل جيورجيد»

كتب هذا المقال كونستنتان فيرجيل جيورجيو خصصاً لمجلة BOOKS ABROAD الاميركية وقد ترجمه عن الرومانية «بول مارسيل جيلود» أحد اساتذة جامعة اوكلاهوما .

بيع من الطبعة الفرنسية الاولى للساعة الخامسة والعشرون خلال عشرة أشهر من صدورها (١٥٠,٠٠٠) ألف نسخة . وترجمت بعدها الى ثمانية عشرة لغة في الوقت الحاضر يعمل المؤلف في كتابة قصة جديدة اثر حوادث رومانيا الاخيرة . اسم هذه القصة سيكون الفرصة الثانية .

قد يبدو الكلام عن الساعة الخامسة والعشرين متأخرا الآن .

ولكن هذا الكتاب اعظم ما أنتجه العقد السادس من القرن التاسع عشر واكبر وثيقة اتهام ضد روح الالية . ومفاهيم المادة التي سادت هذا العصر . وستبقى «عروض الحال» التي كتبها جيورجيو . اقوى من صرخات الانسان واشدها تمزقا . والمناحة الافجع لحضارة ضمير .

لقد حدثت هكذا :

كنت وزوجتي نعاني من الجوع . كنا جائعين بشكل مخيف . وكنا كذلك لزمن طويل . حتى أن عضلاتنا قد جفت . كما تجف البشرة بعد الموت . كذلك اللحم الكاسي عظامنا . ولم نتمكن بعد من التفكير . واصيبت ذاكرتنا بالاضمحلال .

كنت خجلا من أن أبدي نفسي في الشارع . لقد صرت بخيلا بشكل مزعج . كان المارة يلتفتون ويحملقون بي . ولهذا انميت شاربي على الاصح ارسلت خطا أفقيا أسود عريضا بعض الشيء . يخفي ولو جزئيا شحوب وجنتي الزائد . وتفصدهما .

دعوني أذكر لكم بالتفصيل ماكنا نأكل .

لم يكن يصيبنا يوميا اكثر من (٨٠٠) حريرة . — ثمانمائة حريرة يوميا — ناتجة عن سدس « اونز » من الزبدة . أربعة الى ستة قطع رقيقة من البطاطا . شريحة من الخبز . وأقل من نصف « اونز » من اللحم . والواقع أننا كنا نتناول مؤونة اضافية . ثلاث بيضات سنويا لكل فرد « بوند» من التفاح كل أربعة أشهر . وعددا من ملاعق السكر كل شهر .

هذا ماكنا عليه عندما انتهت الحرب . وهذا ماعشنا عليه لعدة سنوات خلت قبل انتهائها . كانت هناك صعوبات كثيرة الى جانب الجوع . ولكن الجوع كان أمرها فعندما يشتد بك الجوع حتى يذبل جسمك . فمن الطبيعي انك تحلم ليلا نهارا بالطعام . لم أعد أحلم بشيء غير الخبز . والبطاطا والزبدة . بشكل خاص الخبز والزبدة . هذا كل ماكنت أحلم به . ولما كان من المستحيل لاحلامي أن ترى التحقق . لذلك كنت ممتلئا بالخيبة . ولذلك تركت الامال التي كنت أحلم

بها للمستقبل بصورة مسبقة . لم أعد قادر على التصديق . ان يوما ما . سيأتي . يمكن ان نملك فيه قدر كفايتنا من الخبز والبطاطا والزبدة . ولذا قدرت ان اقتل نفسي . سوية مع زوجتي وكان يكفي أن نلقي بأنفسنا من النافذة .

كنا ايامها نعيش « هايدلبرج » في غرفة في المخزن الرابع في « روهر باشرستراس كنت وزوجتي ننظر من النافذة الى الاسفلت ، امام لمنزل . ننظر الى الشارع الزاخر بالعربات المحملة بالجنود . الى رجال الشرطة يطوفون باستمرار . ولاوقات طويلة فكرنا فيما بعد اذا كنا على صواب في عقدنا العزم على الانتحار أعني ترددنا فيما اذا كان من المحتمل ان يوجد في الحياة مايؤسف عليه . وانتهى رأينا الى أنه لايوجد مايؤسف عليه .

على النافذة . في ذلك المساء . والنور يضمحل . عاودنا النقاش فيما كنا مزعمين عليه . كانت أعيننا تقع على رجال الشرطة وعلى الجنود السكارى . يتجولون في السيارات وفي الوقت الذي كنا نتكلل فيه . كنا نفكر أيضا في الطعام . في الخبز . والبطاطا والزبدة لقد كانت أحلامنا واسعة . ولكن . الى الان. لايمكن استمرار الحياة . دون لوازم المعيشة هذه .

قلت لزوجتي : غدا في الظهر . في رائعة النهار . دعينا نقفز عبر النافذة . ولكني لم أنفذ خطتي هذه . لانه في غد ذلك اليوم . دخلت كندا في حياتي . كندا التي غيرت مساق حياتي .

واليكم كيف حدث ذلك .

في الصباح قال لنا جارنا الصربي الذي يعيش بجوارنا ، ان البعثة الكندية قادمة الى « هايدلبرج لعدة ايام . وانهم سيستأجرون ثلاثين الف رجل للعمل في الغابات وسيسافر الرجال المستأجرون على الفور .

كان ذلك عام ١٩٤٧ . وقبل بضعة ايام من عيد الميلاد . كنا نعيش في المانيا بعد ان أطلق سراحنا من السجن . ولم نتمكن من مغادرتها . وكنا في هذا . مثل مئات الالوف من مختلف الجنسيات . أناس هاربون من الاضطهاد ، رجال حطمهم المعتقل . لاجئون عانوا ألف تعسف وتعسف .

والمانيا في قلب اوروبا . لذلك فمن اي جهة جاء اللاجئون . حطوا في المانيا حيث لم يكن لهم من دونها منفذ . كانت تبنى المعسكرات للاجئين - وكما اسلفت - كان اللاجئون يعدون مئات الالوف . في المعسكرات وخارجها . بالاضافة الى هذا لاجئون آخرون كانوا يصلون باستمرار وبمئات الالوف ايضا . خليطا لا يمكن تمييزه . رجال من كل العروق واللغات والاوضاع . جنرالات جنود . قسس . اساتذة جامعات . نساء . اطفال. فلاحون . محشورين في مكان واحد . وكأنهم في قدر يغلي . لايمكن الخروج منه الا ان تخرجك البعثة .

سألت جاري الصربي .

« هل تأخذ البعثة الكندية رعايا رومانيين » .

وكان الجواب هزة من كتفي الصربي .

لقد كانت في ألمانيا أكثر من بعثة قبل هذه . ولكن البعثات جميعا لم تكن تقبل الرومانيين .

كانت هذه البعثات تتألف من رجال الاعمال الاغنياء . الضخام الاجسام . أصحاب ساعات اليد الذهبية . والسيارات الفاخرة . واليخوت، كانوا يأتون ألمانيا ليتسوقوا رجالا للعمل . حيث كان الكثير منهم في ألمانيا . وبأسعار رخيصة.

جاء التجار يتفقدون حشود اللاجئين المختلطين . تماما كما يتفقد خبراء الاسطبلات الخيول في المزايدات . يختارون الذي يشاؤون . ويعبئونهم في السفن ويرسلونهم للعمل في بلادهم .

على أي حال . قبل أن يشحن الرجال .

---

*اونز - مقياس وزن ألحاني يعدل ٢٨,٣٥ غ.

كان التجار يأخذون منهم توقيعا على عقود عمل لمدة ثلاث . أو خمس . أو عشر سنوات . ومن ثم يأخذ التجار العقود الموقعة . ويضعوها في محافظهم الجلدية الفاخرة . ذات الاقفال المذهبة . ويركبون سياراتهم . وبعد . يعبأ الرجال المستأجرون في السفن - أقصى ماتسع كل سفينة - لتقل نفقات نقلهم . ويشحنون عبر المحيط .

كنت ترى في كل مدينة في المانيا تجارا يبحثون عن الرجال . لقد افتتحوا لهذا مكاتب . ودونوا تعليمات . ثم يقف الرجال طوابير - بعشرات الالوف - أمام هذه المكاتب . ولكن التجار الذين يؤلفون البعثة كانوا لا يشترون اعتباطا . لانهم كانوا في وضع يمكنهم من انتقاء حاجاتهم . وكانت حاجاتهم أقوى الاجسام . كانوا - على التعيين - يأخذون الرجال من العروق المتفوقة وبشكل خاص العرق الشمالي كانوا يقولون أن الشماليين ذوي دماء ممتازة . وأنهم أطول . وانهم ذوي عضلات أقوى . وبامكانهم احتمال الجوع أكثر . ولا يتمردون - والاهم - لايموتون بسرعة .
عدة رعايا رومانيين من جنسيتي . ركعوا على ركبتهم . ورجوا بعثة التجار الاستراليين . ان يأخذوهم الى استراليا . لكن التجار الاستراليين رفضوا اخذهم لاسباب .. عرقية .

كانوا لايأخذون أي روماني . أو يهودي . أو هنغاري . فاستراليا كانت تخطط للحصول خلال عدة أعوام على سكان من الصنف الممتاز . ولذلك كانوا ينتقون العروق التي يقول العلم ان اختلاطها يولد جيلا صالحا .

خلال هذه السنوات عانيت - وعلى صورة مزعجة - كوني - لست من عرق ممتاز . لان بعثات التجار هذه . كانت الوسيلة الوحيدة للخروج من المانيا . والخروج من المانيا كان يعني الخلاص من الجوع .
عندما سمع أحد هؤلاء الذين يتعاطون تجارة الرجال أني روماني . أشار باصبعه الى المحاسب ليدلني على طريق الخروج . ولقد جربت كل البعثات وبعد ان تكرر رفضهم لي . كنت مفعما بالخيبة . حتى لقد وددت الموت . وحتى أن أقتل نفسي بيدي . لانني عرفت أنه لن يمكنني الخروج من هذا القدر الذي يغلي .. مادام هؤلاء التجار . عازفين عن أخذي .
قال جاري الصربي .

« أعتقد ان البعثة الكندية تأخذ الرومانيين وحتى الالمان أيضا . وهم يفضلون أن يكونوا فنين ».
في البداية ظننت ان الصربي يحاول ان يهبني أملا سروبا . ولكن الذي بدا لي فيما بعد أنه كان يقول الحقيقة . حيث ان الكنديين بالفعل كانوا يأخذون الرومانيين . بل وحتى اليهود . والصقالبة . ويمكنك ان تعرف المنزلة التي احتلتها كندا في نفسي في ذلك اليوم . في نفسي وفي نفس زوجتي . ولم تمض ساعات حتى أصبحت بتاثير هذا - كندا موطنا ثانيا لي . بل . واحب من وطني الاصلي .

قت لزوجتي .

أنت ستطبخين .. وأنا سأتعاطى قطع الاشجار خلال الخمس سنوات هذه وسيكون لدينا الكفاية من الطعام . وسنصبح سعداء . وبانقضاء الخمس سنوات سكيون لدينا شيء من المال . ويمكننا أن نبدأ الحياة من جديد . سنرتبط بهذا العقد لمدة خمس سنوات نعمل بها في الغابات . ولكن ماهي خمس سنوات في حياة الانسان ؟ خصوصا واننا لن نعاني الجوع خلال هذه المدة .

سعدت زوجتي . حتى لكأن بامكانها تخيلي أقطع الاشجار في كندا . وتخيل نفسها تعد الطعام . قليل من الزبدة . والمعكرونة . وشرائح اللحم .

صحبتني الى مكتب البعثة الكندية . حيث تركتها بالانتظار . كان مكتب البعثة يحتل بناء أشبه بالقصر . اصطفت خارجه السيارات الاميركية ذات النوافذ العريضة . التي يمكنك خلالها أن

ترى المقاعد الجلدية بحجم الاسرة .

نعم . يمكننا ان نأخذ رومانيين . على ان لايكونوا مثقفين مفكرين

كان هذا ماقالته لي سكرتيرة البعثة الكندية . كانت تحمل بيدها مجلة مفتوحة على صفحة تحمل هذا العنوان « قصة حياة »

قلت : لقد كنت في الماضي مفكرا . لكني لم أعد الان كذلك على الاطلاق . أريد ان اصبح عاملا يدويا لاأكثر .

اجابت : نحن لانأخذ مفكرين .. ثم غادرت .

عدت الى الشارع . كان بقي لعيد الميلاد أيام قليلة وبدأ الثلج يتساقط . جاءت زوجتي الي . وجلسنا على حافة الرصيف . اعتمدت رأسي بيدي . لقد كنت أشعر بالدوار .

سألتني زوجتي :

لم يرغبون عن اخذك ؟

أجبت : أنهم لايريدون مفكرين .

قالت عاتبة :

لم يكن عليك أن تخبرهم بأنك مثقف .

أجبت : لقد جربت هذا الفخ الاخير . ولكنه لم ينجح . فالتجار الذين يمتهنون تجارة الرجال في المانيا لم يكونوا ليخدعوا بسهولة . انهم يعرفون كيف يحصلوا فائدة مالهم . انهم حكاما مدققين في لحوم الرجال ، لقد كان بامكانهم ان يقذفوا بي ميلا بعيدا عنهم .

قالت زوجتي .

اذا لم تنجح الآن مع الكنديين فمعنى هذا أن فرحتنا الاخيرة قد أفلتت .

فمن يدري متى تقدم بعثة أخرى تقبل أخذ الرومانيين . عليك ان لاتستسلم بهذه السهولة . عليك ان تلح عليهم . ان تقنعهم .

اطارات السيارات كان تعصف بعلو وجهي – قبالتنا – سيارات مغطاة خاصة للضباط . سيارات جيب فيها جنود . سيارات بوليس .

اعتمدت جسمي بيدي مصمما ان ألقي نفسي أمام أول سيارة . لقد شعرت أني أضعف من ان اذهب الى البيت والقي بنفسي من النافذة تصورت انه هنا . والآن . وأمام أول سيارة ستكون القضية ابسط بكثير .

قالت زوجتي :

تعال – دعنا نحاول مرة أخرى . سأذهب معك .

فأجبتها .

اني متعب للغاية هذا اليوم سنذهب غدا .

وفي الغد حاولنا ثانية .

سألت رئيس البعثة – كان تاجرا ذو بطن كان برميل جمعه في فمه سيكار .

لم تريد ان تأخذني . ماهو الخطأ الكبير في كوني مفكرا . هل تظن أني لن أقوم بعملي .

أجاب مؤكدا « ليس هذا هو السبب » .

قلت :

سأعمل بنصف أجر . لايمكنني أن أبقى هنا لأفعل شيئا الا ان اجوع .

قال : لايمكن صنع شيء ..

قلت : أعدك أن أحدا لن يعلم بأني مفكر . لن أقرأ حتى جريدة .

قال : جوابي « لا » .

قلت : هل عندك مانع ان تخبرني لم ترفضني . وهل فقط لكوني كنت مفكرا . ماهي المسبة الكبرى في أنني كنت مفكرا .

قال : أنت لاتملك أية عضلات .

وهكذا رفض أن يشتريني – كندا رفضت أن تشتريني – .

ويومها بدأت أكتب الساعة الخامسة والعشرون.

الثقافة

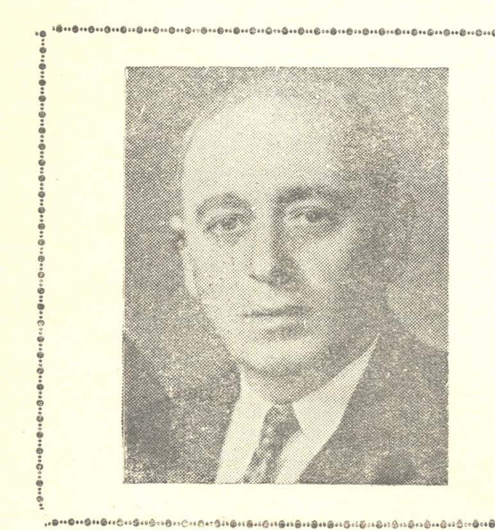
اصالة المنى في الـكلمة العربية

بقلم : زكي الأرسوزي

لدى اقامة المقارنة بين اللغة العربية وبين لغة اخرى كالفرنسية مثلا ، يتبين ان جذور الكلمات الفرنسية في التاريخ ، وجذور الكلمات العربية في ما قبل التاريخ ، في الطبيعة . ونحن نعني بذلك ان كلا من الكلمات الفرنسية قد حصلت في ظرف تاريخي معين ، من تحوير احدى كلمات اللغة اللاتينية . ومن هنا ايضا اتى اعتبار الفرنسية لغة مشتقة لا اصيلة . وما قيل عن الفرنسية ينطبق على لغة الام اللاتينية ، اذ ان كلا من كلمات هذه اللغة قد حصلت بدورها من تحوير كلمات اللغة الهندية الاوروبية ارومة اللغات المنتشرة من شمالي اوروبا حتى جنوبي الهند . واللغة الهندية الاوروبية ذاتها ليست بدائية ، تضيع جذور كلماتها في مجاهل التاريخ .

واما اللغة العربية فهي ذات طابع بدائي ترجع كلماتها جميعا الى اصوات طبيعية . والاصوات التي صنعت العبقرية العربية اداة بيانها هي : اولا بادرة الهيجان الصوتية كـ « ان » و « آخ » مثلا . ومن « ان » أي من صوت الانين اشتقت ان أنينا ، ومن تحويل الهمزة الى شقيقها بالمخرج « ع » اشتقت عن عنينا ، ومن تحويل الهمزة الى شقيقها بالمخرج « ح » اشتقت حن حنينا ، ومن « آخ » الذي هو صوت التوجع اشتقت الاخاء والاخوة ... الخ

وقد استعانت العبقرية العربية في انشائها الكلمات بالاصوات التي تحدث في الطبيعة الخارجية كصوت خرير الماء ، الذي اصبح مصدر اشتقاق الكلمات: خرب وخرج وخرد وخرم وخرق .. الخ وذلك بالحاق احد



الحروف الى الصوت الطبيعي (الحاق حرف باء او حرف جيم او حرف دال .. الخ) ومن صوت غليان الماء « فق فقفق » انشأت العبقرية العربية الكلمات : فقأ (الدملة) فقح (الكلب عينيه) وفقص (النقف من البيضة) ، وذلك بالحاق احد الحروف الى الصوت الطبيعي كحرف الهمزة في فقأ وحرف « ح » في فقح ... الخ .

وثمت اصوات تحدث في الفم ،استعان بها الذهن العربي في التعبير عما يجيش في النفس كصوت « » الذي يحصل من تقاطع اللسان مع النطع فيوحي بمعنى القطع . ومن بت هذه اشتقت الكلمات: بتر والباتر وبتل والبتول ، وترجع الى نشأة مماثلة الكلمات : قد وقدر وقدم ، وقض وقضم ... الخ .

وفضلا عن ان اللسان العربي بدائي النشأة ، فان

كلمات هذا اللسان يبدأ تكوينها عفويا،من انبثاق المعنى دون طائلة العقل . هذه الحقيقة تدل عليها امور مختلفة منها : ان اصوات الهيجان الطبيعية التي كانت مصدر اشتقاق لمعظم كلماتنا تشير الى العلاقة بين اللغة الطبيعية واللغة المصطلح عليها كرمز عند الجماعة. وهاك وهاك بعضا من الامثلة عن تحول البادرة الصوتية للهيجان الى كلمة تخضع لمشيئة الانسان :

صوت « نف » وهو اندفاع النفس من الانف امام شيء مستكره ، كان ارومة اشتقت منها الكلمات : الانف والنفس والنفرة والنافلة ، وكان صوت « تف » مصدر اشتقاق تفل وتفه والتافه ... الخ . وهاك امثالا بليغة عن نحو اللسان العربي نحوا عفويا : «ن» هذه العبارة تعني الصميم الداخل ، بحسب صداها في النفس. وهناك حرف آخر «ب» يعني بحسب حدوثه على الشفتين ، معنى الظهور الخارج . فمن الحاق حرف « ب » الى حرف « ن » استحدثت الكلمات نب ، نبت ، نبك ، نبق، نبع ،نبغ ، نبأ .. الخ. كلمات كلها تتضمن معنى الخروج من الصميم المغلق الى الظاهر العيان .

٢ ـ ومما يدل على اللغة العربية بصورة عفوية (انسياقا) قبل اجتهاد العقل اجتهادا يصيب به تارة ويخطيء تارة اخرى هو نظام الكلمات في الجملة العربية تبدأ الجملة في اللغة العربية بالفعل بدلا من ان تبدأ بالفاعل كما هي الحالة في اللغات الاخرى . هذا الاختلاف في ترتيب الجملة متأتي من ان اللغة العربية تحمل طابع الحياة ، في حين ان اللغات الاخرى تحمل طابع العقل . ان الحركة هي التي تثير انتباه الحياة ، لا الاشياء . حتى اذا ما سكن الشيء اهمل شأنه من قبل الحيوانات . ومن هنا استعانة الصياد بالكلاب على اثارة الطيور من مكمنها اذا لبدت اتقاء شر الاعداء.

٣ ـ وفضلا عن ان الجملة العربية تبدأ بالفعل فهي ذات طابع ايجابي وليست حالة السلب فيها الا حالة طارئة عليها . ويدل على ذلك الاعراب وهو الحركة المعبرة عن وظيفة الكلمة في الجملة يبقى على ما هو في حالتي الايجاب والسلب : بريت القلم ، ما بريت القلم. هذا مع العلم ان الفعل لم يقع في الجملة السلبية . وهاك دليل آخر على تكوين اللغة العربية قبل يقظة العقل هو فقدان الكلمات ذات التكوين السلبي وذلك لان الحياة تعيش الواقع فتبقى على حدود الصورة المتمثلة في الذهن والعقل لوحده يقب عن الواقع فيتردد بقبته بين الشيء وضده ، ترددا يرتقي به الى حالتي الاثبات والنكران .

ومع ذلك فان الذهن العربي قد يضيف الى بعض الكلمات معنى التضاد دون ان يحدث فيها اي تبديل ، هكذا تحمل اللغة العربية طابع الحياة وهي امتداد للغة الطبيعية الخاصة ببني الانسان .

ونحن نستخلص مما تقدم ان معاني الكلمات العربية تمثل تجربة الحياة تمثيلا مستقلا عن اجتهاد المجتهدين . فما للذهن الا ان يستحضرها حتى ينبعث من النفس المعنى الذي انشأها . وهكذا تلتقي الاحفاد مع الاجداد في تجربة الحياة الاصيلة . بل هكذا ينشيء النوابغ صرح الثقافة من الحدس المشتركة في الحقيقة ، بينهم وبين الجمهور . واما شأن الخيال من استجلاء الحدس المشترك هذا فهو بمثابة الموسم في استجلائه كوامن الحياة في بذور النبات .

ان ما يساعد الذهن على استجلاء المعنى هو الرابطة الاشتقاقية بين الكلمات العربية بحيث تصبح الكلمة في اسرتها كالنغم في تضافره مع شقائقه الانغام في دعوة الانهام الى البدور في ساحة الوجدان حتى لكان الكلمات في الاسرة الواحدة من الحدس المشترك بينها بمثابة القصيدة من الهامها وان كان الفنان في انشائه الصور المجازية اكثر حرية من الجمهور في استجابته على المسببات في وضع الكلمات . ونحن نعني بذلك ان الكلمات نوعان : نوع يعبر عن الاشياء الحسية وآخر عن المفاهيم المجردة . والكلمات الموضوعة للتعبير عن المحسوسات وان ساير الذهن ، في وضعها الحاجات المادية فهي مع ذلك تصبح تعاريف بالاشارة للمفاهيم المجردة كتعريف الشريعة بالشارع . وبينما تبقى الكلمات المعبرة عن المحسوسات خاضعة لمقتضيات الطبيعة الخارجية ، تتحرر المفاهيم عن تلك المقتضيات فتصبح تجليات الحدس المتضمن في مصدر الاشتقاق. حتى اذا ما استقطب الذهن هذه التجليات اتضح الحدس وضوحا تاما ، كما يتضح معنى القصيدة لدى المام الذهن بمقوماتها .

الضفاف السمر

شعر
خليل خوري



في مجد مجدك نحن عباد ... ولنا غوايات وأمجاد

رحلاتنا في الطيب غمغمة ... فالمنتهى غزل وأعياد

يم يفيء الى جزائرنا ... وتشير في المجهول آباد

الصحو في عينيك مرفؤنا ... فكأننا في الصحو رواد

لعب وأشياء منمنمة ... وخيالنا نزق وصياد

* * *

نحن الذين ودادنا حلم ... حلو على الحدقات مياد

الطيب بعض عطاء كرمتنا ... فتن ، وأعماق وابعاد

ظميء الهوى ، ويحار زورقنا ... أي الضفاف السمر يرتاد

يا أخت تهتف كل جارحة ... ألنا على الشطآن ميعاد ؟

فيك انتهت احلام عودتنا ... وبمجد مجدك نحن عباد

خليل الخوري

* * *

ابواب الله الواسعة

قصة جديدة بقلم : عبد الله الشيتي

الاهـداء : الى روح عبد الباسط الصوفي . صريع الحرف !

دخل المدينة في هدأة الليل ، غريبا تائها ، لايعرف احدا ، ولا يعرفه احد .

وكان أهل الحي القديم الذي جرته قدماه اليه ، يوجسون خيفة من أمره ، ويشفقون ان يكون معتوها ، او مجنونا ، يشكل خطرا على حياة اطفالهم وغلمانهم . الذين كان تخوفهم منه يتبدى في تراكضهم من امامه ، كلما سار الهوينا بين البيوتات المتناثرة ، ميمما شطر المسجد البعيد ، ينام في فنائه على حصير ، وفي اطلاقهم صيحاتهم الصبيانية المتباينة ، التي يتمتم منها محاولتهم اتقاء شر الغريب المجنون . !

وما هو بمجنون ، لكن هيأته الرثه ، واسماله البالية المتاكله ، التي تحسر عن بعض أجزاء في جسمه ، ونظراته الزائغه النهمه ، وبلاهته الشارده . . كلها جميعا ادخلت في روع سكان الحي القديم ، ان هذا الغريب مجنون ، ينبغي أهماله ، وعدم التعرض له باي سؤال !

دنوا متحفظين معه ، حذرين منه ، فهم لايعرفون من اين هو آت ، ويجهلون سبب أقامته بين ظهرانيهم حتى ان « ابو محمود » مختار المحلة ، لم يجرؤ ان يسأله عن اسمه او هويته ، أو يمضي في أستقصاء شأنه مثلما يفعل عادة مع من يستريب بهم ، وهمس لنفسه غير مبال .

— : من يدري ؟ . . لعله متسول شحاذ . . !



وكان الغريب لايمضي في شروده ، ومع تقادم العهد عليه ، كان نفوره من نفسه ، وقرفه من الدنيا يزدادان قسوة في الزمن .

« ولو ان احدا شاء ان يرقبه عن كثب ، لالفاه سادرا في الأفق البعيد ، بعينين مصلوبتي النظرات ووجه مخطوف اللون ، كأنما هو شاعر مدله ضيع محبوبته في مرئيات الطبيعة ، او منجم هندي يقرأ الغيب للحيارى ويستطلع المجهول .

وكان ، رغم ما يكتنفه من ضباب الصمت والكآبة ، يرى الناس بعين الرضا الكليلة عن كل عيب ،

---

(١) القيت من اذاعة دمشق .

المخفية لكل سوء ، أما عين السخط التي تبدي المساويء فقد كانت عنده عمياء لا تبصر . !

*

هتف به الحارس الليلي ، ذات ليلة قارسة ؛ غيومها داكنة حزينة ، والناس فيها نيام ، وقد رآه يجوب الطرقات على غير هدى ، فامتثل الغريب للامر ، وتسمر في وقفته ، لا يبدي حراكا ، وظل رأسه مطرقا ، وعيناه ذليلتين نصف مغمضتين .

اقبل الحارس عليه بخطى وئيدة يسأله بصوت أجش :

– من أنت..؟ ماذا تريد ؟

– ....

وسحب نفسا طويلا من سيجارته ، وقد استهجن صمته ، وشرع يتفحصه بفضول ، من خلال ضوء مصباحه الصغير الذي سلطه عليه وأردف :

–نحن نراك بيننا منذ مدة ولا يعرف أحد عنك شيئا .. ؟ وراح يصرف الكلمات بلهجة الحزم والامر :

– ما اسمك .. ماذا تفعل الساعة ..؟ اين تقطن ..؟ اعطني هويتك .!

فتح الرجل فمه لاول مرة ، وتقاطر الجواب كلمات مقتضبه تناثرت على شفتيه المرتعشتين كالحمى :

– انا بلا هويه .. بلا اهل .. بلا ماوى !

قال الحارس :

– اين تنام ؟

قال الغريب : في فناء المسجد الذي حذرني خادمه من غشيانه الليلة ، وقال لي « ابحث عن غير هذا المكان فهو للمصلين الاتقياء فقط » ..!

انتفخت اوداج الحارس وانتهره بقسوة :

– صه .. هل هذا كلام ؟ ان امرك مريب يوحي بالشك ..اكشف لي عن نفسك ، او امضي بك من غير شفقة الى القسم .! قال الغريب ولم يبرحه هدؤه :

– لست محتاجا شفقة احد ، اني اكره العطف مثلما اكره الضعف . عاد الحارس الى حدته :

– على رسلك ، سوف أمضي بك الى او لقسم . رد الغريب ، وهو يهز رأسه أسفا :

– امضي بي الى حيث شئت ياسيدي الحارس.. انت تعلم ان ضياعي هنا ، ليس خيرا من المكان الذي ستقودني اليه .. هيه قد أجد فيه مأوى ، وطعاما آكله ، فأنا جائع كما ترى ابحث عن طعام !.

– اي طعام ستجده في مثل هذه الساعة المتأخرة ؟

– علي ان ابحث ولا أيأس .. انني لن اعدم امل العثور على القمامات ، والنفايات ، اجد فيها ضالتي.!

وانتابته ضحكة عصبية ، وهو يصيخ سمعه الى نباح كلب يتهادى من بعيد ، حادا متواصلا ممطوطا ، يعكر صفو الليل البهيم .. واردف :

من يدري ؟ لعله جائع مثلي يبحث عن طعام .؟

وراح يثرثر :

– الجوع كافر ياسيدي الحارس .. هل سبق لك ان تضورت جوعا ؟.. هل تعلم ماقالوه قديما ..؟ قالوا لو كان الجوع رجلا لقتلوه .. ولوح بقبضته صارخا :

– ومع هذا فانا اكره القتل .. ولا احب ان اقتل احدا ! زمجر الحارس غاضبا :

– مامعنى هذا الكلام .. انك تتكلم كالفلاسفة..!

قال الغريب :

– الجوع ، والفقر ، والحرمان ، وضياع العمر .. كلها امور تعلمك الفلسفة ، وتعلمك غير الفلسفه .. وتدفعك الى ارتكاب كثير من الحماقات .. وتجعلك فيلسوفا و .. زمجر الحارس من جديد يقاطعه :

– كفى ... انت تتهكم علي وتتحداني ..؟ أأنت الغريب المجنون تتفلسف بمثل هذا الهذيان ؟..

ولان صوته ، عندما رأى ان جسم الغريب يهتز كريشة في مهب الريح ، بفعل نوبة مفاجئة من السعال فقال مشفقا :

– البرد قد اثر فيك ، احسب انك مريض على ما أرى ؟ رد الغريب ، من خلال سعالة المتقطع وعينيه الجاحظتين :

– لا اعرف اذا كنت مريضا او ميتا ، ولا اعرف الداء ولا الدواء .. انا في هذه الحالة منذ سنين !

ـ حيرتني يارجل .. انك لغز عجيب .!

وارسل الغريب ضحكة متقطعة كالحشرجة ، المتهالكة :

ـ لست لغزا .. انني مثلك تماما .. انسان مكتمل التكوين ، لكن حظي قليل في هذه الدنيا ، بل ليس الي حظ على الاطلاق .. هل تعرف الحظ ؟..

عيل صبر الحارس ، وهز رأسه يائسا ، فدعاه الى غرفته الخشبية الصغيرة لتناول كأس من الشاى يدفيء صدره .

وعلى ضوء السراج الشاحب ، استطاع ان يستبين طلعة الغريب تماما :

.. كان رجلا كهلا ذا جسم ناحل ، مكتمل الهيئة كما قال وقد اعفى لحيته وحفر الزمان في وجهه قسمات مقروءة مكفهرة ، وترك رؤوس اصابعه تطل من فجوات حذائه المهتريء ، وقدر له الحارس من العمر ، في سره ، ستين عاما او يزيد ، ولم يكن في تصرفاته مايدل على ميل الى الحيلة او الشر .. كانت ملامحه المكتهلة بريئة هادئة كالمحبة .!

رشف الغريب جرعة من الشاي الساخن، ذي اللهب المتصاعد ،وندت عن صدره آهة محتسبة قال في اثرها:

ـ انا ياسيدي غريب على باب الله .. انام في المساجد شتاء ، وعلى اعتاب منازلكم ، وابواب البنايات الكبيرة ، وفي حدائق المدينة الكثيرة النتشرة صيفا .. وآكل ما اجده من فتات طعامكم اذا وجدت .. واعيش مع الليل والمجهول كما ترى واشتهي رغيفا كاملا من الخبز وصحنا من الفول .. وليس لي من احد ، سوى الله الذي انا على بابه !..

وتراقصت على شفتيه نصف ابتسامة شاحبة وأردف :

ـ ثق ان الله لم يتخل عني ابدا ، فأنا لم أمت مثلا حتى الآن .. على الرغم مما اصابني من جوع ومرض .. وهو سبحانه ، لازال يمد في عمري ، ولا زالت في الحياة فسحة !

وانتابته سعلة خنقها في صدره عندما قطع عليه الحارس استرساله :

ـ هل تحب الحياة ؟..

قال الغريب :

ـ مثلما احب الموت .. كلاهما عندي سواء !

قال الحارس :

ـ هل سبق ان اشتغلت ؟

واتسعت البسمة الذابلة على شفتي الغريب ، واغتصبها ضحكة خافتة :

ـ اشتغلت كثيرا ياسيدي .. مارست البيع والشراء فخسرت ، وقالوا انها « التجارة » ملعونة هي ، يوم لك ويوم عليك ، والتحقت بعمل في ورشة تقتطع الحجارة من الجبل بالمياومة ، فطردني رب العمل قبل ان ينتصف النهار ، بحجة انني عاجز لا اصلح ، وقبلت احدى الاسر ، ان تستخدمني في قضاء شؤونها البيتية مقابل أكلي وشربي ، ولما كنت عاجزا لانفع منه يرتجى ، حسبما قالوا ويقولون ، فقد آثر افرادها ان يختصوني بكسرات الخبز الفائضة لديهم .. وكنت اشرب من عيون « الفيجة » .. وقالوا احمد الله على هذه النعمة، فحمدته ولا زلت على حمده !..

وهز رأسه مثنى وثلاث ، وراح يعتصر الكأس في يده ، كانما يريد ان يسحقها ..!

ربت الحارس كتفه بحنو :

ـ لا بأس .. لابأس .. هون عليك ولا تيأس ، وسلم امرك لله ..

ـ نعم بالله ..!

كذلك قال الغريب ، واخذ يغلو :

ـ من أنبأك انني يائس مهزوم ؟؟انني حزين فقط. ان النفوس الحزينة ياسيدي لايعزيها اكثر من مصادقة نفس أخرى في حزن أقسى وأفجع،ولايريحها الا مرآى السواد .. انني قوي ، لازلت ذا جلد واقتدار على تدبير كسرات الخبز اليابسة وبقايا الاطعمة .. والماء كثير .. كثير .. انه يتفجر من عيون كبيرة ليس له ثمن .. مثلي تماما !..

وتنهد من جديد ، وهو يزوي مابين حاجبيه :

ـ هية .. انه القدر ، ان قدري كالتجارة التي مارستها ، ملعونة هي ، يوم لك ويوم عليك .. اما انا فقد كانت الايام كلها علي ، وكلها لغيري .. ومع ذلك

فهل املك الا الحمد ...؟
وسعل سعلة جافة متقطعة ..

تنفس الحارس الصعداء .. هو ليس مجنونا كما توهمه في البدء .. انه ذو نفس كبيرة ، اكبر من الالم، واكبر من العذاب الذي هو فيه .. العذاب الذي سمعهم يصفونه في « السنما » بأنهشريعة الحياة..انجليسة الغريب قوي ، اقوى من الشقاء الذي يسربله .. انه من اولئك الذين تعرفهم بسيما هم ، يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف لايسألون الناس الحافا ..

وودعه الحارس مشجعا على امل اللقاء .. وتمنى له الحظ والفلاح ، بعد ان دله على مسجد جديد .!

دس الغريب يديه الراعشتين في طيات ثوبه ، بعد ان مررهما بسرعة فوق « كانون النار » الصغير .. وابتلعه ظلام الشارع الطويل ، يرسم له الف صورة وصورة ، تنداح في خاطره ، الزاهي منها والضاحك ، والقاتم والعابس ، وكلها صورحية ، كانت تهمس فى أذنيه او تصرخ ، وترقص امام عينيه ثم تتلوى !..

استفاق اهل الحي القديم ، في صبيحة اليوم التالي ، على حقيقة المقيم الغريب .. وتبدلت نظرتهم نحوه ..عرفوا من الحارس انه انسان طيب ، هبط المدينة عن حسن نية .. وانه لايؤذي ولا يسرق ولا يضرب احدا .. وعرفوا انه غريب بائس يتسكع على ابواب الله .. وانه بلا اهل ، بلا مأوى ، بلا هوية .. بلا هدف .. وعرفوا انه ليس مجنونا ، وهذا حسبهم ، فانطلق الكبار منهم يحيونه ،ويطيبون خاطره،ويتصدقون عليه ، فيرد تحاياهم بايماءات خفيفة من رأسه ، ويعزف عن تناول الصدقات .. وأنشأ الصغاريتحلقون حوله، ويثرثرون ويلعبون .. وهو جالس بينهم يقص عليهم من حكايات ملوك الجن والعفاريت وعرائس الليل و « الاربعين حرامي » ، مايدخل التعة الى قلوبهم الصغيرة ، ويطمئنهم الى جليسهم الكهل ، الطيب ،الذي يحب جميع الاطفال !

سأله واحد منهم يوما بسذاجة وبراءة :

ـ هل لك زوجة وبيت ياعمي ..؟

اجاب الغريب بهزة من رأسه علامة النفي !..وسأله آخر : هل عندك اولاد ..؟

قال الغريب : كلكم اولادي ..!

هتف ثالث فيهم وهو يقضم قطعة « الشوكالاته»:

ـ لماذا لايكون لك بيت ..؟ نحن سعداء ياعمي .. لانحزن مثلك .. انت دائما تفكر .. نحن لنا آباء .. وامهات .. وعندنا بيوت وثياب جديدة .. هل يعجبك حذائي ..؟ ويفزع نحوه غلام اكثر جرأة فيقول :بل انظر ..ان حذائي جديد ..

قال الغريب يجاربهم في سذاجتهم:ليتني فيمثل سنكم ..ولي مالكم .. وعندي ماعندكم ..

ويرتفع صوت غلام من « الشلة » بالدعاء :

ـ ان شاء الله .. ياعمي ان شاء الله ..

صار للغريب غرفة ضيقة يقيم فيها .. جاءوا اليه بطعام وفراش بال مهترىء .. ونظم له « ابو محمود » المختار ، حملة من التبرعات البسيطة ، وهو يشفق أن يكون جهده ضائعا مع سوء الحال الذي آلت اليه صحة الغريب .

وعندما لفظ الشتاء انفاسه الاخيرة ، وادار ظهره للدنيا ، ونيسنت سماء الحي القديم ، كان المرض قد هد الغريب فأعياه ، وكان يغمغم لصديقه الحارس الذي يلازمه في اطراف النهار ، من حين لاخر .

ـ كنت أريد ان أشكرك .. ان أعرفك باسمي .. وان أحكي لك تجاربي التي تعلمتها من الحياة .. في المدن الكبيرة التي جبتها والاحياء الكثيرة التي زرتها .. كنت اريد ان أحكي لك حكاية هذه الدنيا الواسعة التي ضاقت بي فأضاعتني .. هذه الدنيا التي ليس لنا ارادة في المجيء اليها او الخروج منها .. ولكن الله لا يريد أن يتخلى عني .. ألم أقل لك يا صاحبي ؟ .. ان رحمته وسعت كل شيء .. انه يدعوني .. يأمرني .. انني عبده .. واذا كان يهمك اسمي ، فان اسمي عبد الـ ....

واطبق عينيه بهدوء ، وسكنت الحركة في اوصاله، ومات اسمه على شفتيه المحمومتين مثلما عاش .. لا يدري به احد ، وخرجت روحه من الدنيا ، مثلما دخلتها ، غريبة ، تائهة ! ..

*

الله وحده كان يعلم حقيقة عبده ، واسمه ، وهويته .. ويعلم ما له وما عليه ..

نادته الملائكة : يا عبد الصبور ابن آمنة ؟ ..

ورفع الغريب رأسه ، وحملق بعينيه ، فبهرهما نور سماوي غريب ، أضفى على المرئيات العجيبة الساحرة من حوله رهبة خاشعة ..

قالت الملائكة : انك الآن في ساعة الحساب .. يا عبد الصبور اين كتابك ؟

ومد عبد الصبور كتابه بيمينه صامتا لايريم .

وقرأته الملائكه :

« عاش مكافحا صابرا .. ومات مكافحاصابرا .. وكان بارا بالناس .. كل الناس ، لم يقتل ، لم يزن ، لم يكذب ، لم يسرق ، لم يؤذ أحدا ، ولم يأكل رزق أحد ، ولم يرد الاساءة بمثلها .. ولم تأخذ العزة بالاثم كالذين جرفهم حب الدنيا .. وحب الشهوات ، كان طيب القلب ، واسع الصدر ، كثير الصبر ، يصعر خده للناس .. كل الناس .. وكان صالحا من عباد الله القانتين » ..

ابتدره الملاك الذي على يمينه وهو يقوده :

ـ انظر حواليك .. واهنأ بما أنت فيه !

وقال الملاك الذي على باب الجنة :

ـ تمن على ربك ياعبد الصبور ، ان الله يجيب دعوة الداعي اذا دعاه ..؟

لم ينبس عبد الصبور ببنت شفة .. وراح يفرك عينيه ملهوفا .. وملأ رئتيه بالنسيم العطر يفوح شذاه .. وأطرق يصغي الى حديث نفسه :

ـ ماأكرم السماء .. ان اسمه يتردد هنا كثيرا .. كاد ينساه وهو على الارض .. ماأحسن لم تكن له من صلة بهم .. والآن .. أتكون النسيان .. لم يكن محتاجا لاسمه بين الناس .. الجنة ملك يديه ، وهو الذي لم يكن ليسمح لنفسه بأن يحلم بها في المنام ؟..

انقبضت أساريره ، وقد زاد هدوء المكان رهبة في قلبه وقشعريرة .. فاختبل الامر عليه ، وعادت ذاكرته تحن الى الارض .. تنبش الدنيا :

ـ بئست هي .. انها كالجيفة .. وطفق يتذكر كسرات الخبز اليابسة التي كان يغمسها بماء « الفيجة » .. تذكر أبواب الله الواسعة التي كان يلجها ، والمدن التي كان يغدو عليها غريبا ضائعا .. بلا هوية .. بلا ارادة .. بلا هدف .. وتذكر أيام الشقاء ، أيام كان يختلف على صناديق القمامة وبراميل المشافي والمطاعم .. وسلال المهملات ، يفتش عن شيء يؤكل ، أو يبتلع منه بما يسد رمقه ، ويطيل في عمره ، فيلوك لقمته وأيامه ، كما يلوك الجائع المحروم أمعاءه !

وتساءل وهو مستسلم للملاك الذي يقوده بيد من نور عن السر الذي كان يربطه بالدنيا ، والسبب الذي كان يصله بالحياة والاحياء ، بعد أن أعرضت عنه الدنيا ، وأدبرت عنه الحياة ، وتنكر له الاحياء .

ليس ثمة سرولاسبب .. ان الدنيامقسمة ولا أكثر .. ومن ليس له قسمة .. ليس له نصيب .

مل حديث نفسه ، فأغمض عينيه ، واستشعر جوعا وتعبا شديدين ، الى متى يظل الانسان جائعا تعبا .. ؟ ..

وسمح لنفسه ان تثرثر من جديد في دخيلتها :

ـ « ادفنوني عميقا .. عميقا .. ان روحي تشتاق الى الرقاد .. وقلبي يهيم في عالم الابدية .. عالم مليء بالاحلام .. والخبز .. والاماني واخضلال الحياة .. اعطوني اسما .. أعطوني هوية .. أعطوني زوجة وأولادا وصحابا وثيابا جديدة . أعطوني أهلا وحياة لاتموت .. حياة فارعة حلوة كتلك التي تفتر عن ثغر الشمس في رابعة النهار . » . .

ولفحه نسيم الجنة الرطب ، يتضوع بالعطر ، ويتماوج برؤى الاحلام .. فتضرج وجهه بحمرة

مشوبة بالشباب المتجدد واندفاعه ، وتنبه على صوت ، يسيل حنانا وعذوبة ، انبرى يناديه :

ـ عبد الصبور .. ها قد وصلت الى جنتك، تذكر أنها ملكك .. لك وحدك ..

وأجلسه الملاك في مقصورة بديعة التكوين ، انتصبت كالعروس بين المروج الخضر ، والورود الندية ، والاشجار الباسقة يحتاطها سندس واستبرق ..

وانشأ الصوت يستحثه مترفقا :

ـ لماذا أنت منكمش .. ؟ لم لاتنطلق .. لاتتمتع .. لاتفيق على نفسك ؟.. انك في الجنة .. هيا خذ حظك منها ..

وضحك بملء فيه :

الحظ .. ؟ آه .. لقد وجدته أخيرا .. انه هنا في الجنة .. وحظوظ الناس التي رآها في الدنيا تعلن عن نفسها في بذخهم وترفهم وقصورهم واموالهم وبطرهم .. ماذا يسميها .. ؟ هراء ..؟ باطل ..؟هباء في هباء ..؟ زيف ..؟ قبض الريح .. ؟ حقارات .. ؟ ..

وتساءل : أي حظ سيناله هنا رب العمل الذي طرده في نصف النهار .. ؟ وأي نصيب سيكون من حق الاسرة التي استكثرت عليه فتات الموائد .. ؟ والذين كانوا يضربونه ، ويضطهدونه ، ويذلونه .. ماذا خبأت لهم مقادير الجنة وموازين السماء من حظوظ ؟ .. أغلب الظن أن الحظ هنا سيخونهم ، هذا اذا كانوا ضالين !

وتذكر الباب الهائل كأنه يسد منافذ السماء.. وارتعدت فرائصه ، وهلع قلبه : انه باب الجحيم .. لقد ابتسم حارسه الملاك المخيف ، وهش له ، عندما مر به ، واراه كتابه الذي في يمينه !..

انبرى الصوت الملائكي ينبهه الى نفسه بشيء من الانفعال :

ـ ثب لنفسك .. لم يعد لصبرك وصمتك معنى ولا قيمة ..

تكلم ياعبد الصبور .. قل ماذا تريد ماذا تشتهي ، افصح عما يساورك .. انك في الجنة!

واستجمع شجاعته يغالب خوفه :

ـ وماذا في الجنة ايها الملاك الكريم ..؟

قال الملاك بحزم :

ـ انها جنة الفردوس التي وعد الله بها عباده الصابرين ، خالدين فيها ، تجري من تحتها الانهار .. هذه هي أنهار العسل واللبن حواليك .. وتلك هي أنهار الكوثر والخمر أمامك .. ان فيها ماتشتهي الانفس .. وفيها فاكهة وحور عين ، وآباريق من فضة يطوف بها غلمان مخلدون .. انها كما ترى نعيم مقيم !..

وتضاءل عبد الصبور .. وتضاءل .. واغمض عينيه وتفصدت جبهته .. وهز رأسه .. لقد أعيته الجنة تأتيه فجأة .. وراحت شفتاه تتمتمان بهدوء واستسلام :

ـ مادمت في الجنة .. أعطوني رغيفا كاملا من الخبز .. وصحنا من الفول ..!



الى من سافر ولم أره ...

سافر ولم أره .. سافر بعيدا بعيدا .. ليت طريقي التي بعدت فيها تهدمت ابتلعها العدم .. ليت قدماي اللتان سرت بها شلتا .. لبقيت في البيت وودعت الحبيب الغالي ... الحبيب الذي جاءني مرارا ومرارا ، وفي كل مرة يجيبه الباب الموصد بوحشية .. انها غائبة .. انها غائبة فيرتج الكون من الصدى الاجش .. ويردد أنها غائبة ..

أجل كنت غائبة أيها الحبيب ، أجرجر شقائي وحظي العاثر ، أجرجر روحا ميتة يلفها نعش نتن الى مستنقع اسن .. والحبيب يبحث عني هنا وهناك .. ليقول لي وداعا ...

سافر الحبيب وحديثي الطويل لم يسمعه ، وجلساتي الهادئة لم أنعم بها .. سافر والف سؤال في القلب العربيد والكيان الحطيم ..

بعدت ايها الحبيب وتركت في عمق روحي غصة ، وفي كياني المرتعد حيرة .. ستمضي الايام وانت بعيد بعيد .. وأنا وحيدة مع كآبتي وبقايا أدمعي .. بعدت ونظراتك تغمرني وصوتك يملأ الفضاء حولي .. اني ألتفت أجدك .. هذه أزهارك تعيش مثلي الذكرى .. ذكرى يوم حضنتها وفرحة حبيب حملها الى من يحب .. وهذا عطرك يلف البيت ويسكر الجميع بنشوة حلوة .. انك بعيد ايها الحبيب .. بعيد ، ولحبيبة غضبي ، غضبي وتداري غضبها وألمها فيبدو بسمة بلهاء ، ونظرة شاردة ، وخطوة متعثرة .. وتسيء التصرف فتعدو سخرية للاخرين لكنها لاتبالي لانها غارقة بلحن حالم ينبعث من أعماقها السكرى من قرب حبيبها ودفئه ..

سافرت أيها الحبيب ولم أرك .. تمنيت ان اجتمع بك ، أن أنفرد بك ، أن أريح رأسي على صدرك العريض ، وأحدثك طويلا طويلا .. وهيأت غرفتي الصغيرة ومقعدي المنخفض وضوئي الهادي ونغمي الحالم ، وكأسي المليء ، وتمنيت أن أملك جمال العالم وفتنته لارضيك واستحقك وأسعدك ورددت كلماتك الرائعة التي أعيش عليها عمري ، والتي تشدني الى الحياة ، كلماتك الهامسة في تلك الامسية الساحرة رأسي على صدرك وثغرك ، يهدهد أذني وكلماتك تنساب الى قلبي ، كلماتك التي لاأزال أرددها .. لقد افسدت علي حياتي بصحبتك ايتها الجنية المسحورة .. فأين أجد الانوثة الصارخة ، والفكر المتقد ، والقلب الكبير ، واليد الحانية والنشوة المستعرة ، والشوق الدائم ، وكلمة نعم تحضن كل هذا بدفء ودلال .. فقلت لك وأنا راكعة عند أقدامك تجد هذا عندي ياعبدي وأميري .. ياقائدي وحبيبي ... وروعتي التي ترضيك صدى حبك ، فانا رائعة بحبك حانية بعبادتك .. رددت كل هذا وأنا أهيء غرفتي واستعد لاستقبالك .. وحلمت بالبقاء

بين يديك الساعات الطوال ، سأفتح لك الباب خلسة بل سأتركه مفتوحا واراقبك خلفه ، وتضمك غرفتي الى قلبها ويحنو عليك مقعدي الذي أعددته لك ، ويطل علينا القمر من النافذة وتشركنا النجمة الصغيرة نشوتنا ، فتأخذني اليك وتهمس بأذني بل بقلبي ، وتحلق بأجوائي فأنسى نفسي ومكاني ، ويخلد زماني على لحظتي الراعشة ونشوتي العلوية .. وأنت معي تمنحني عصارة روحك وأفكارك ونشوتك ..

لا لن أنسى تلك اللحظات في الغرفة البعيدة وراسك .. لا لن استرسل أكاد أختنق .. لن استرسل فكياني يرتعد كلما ذكرت هذا .. وبعدها وفي نفس الغرفة واللحظة الراعشة غضبت .. غضبت والهزة العلوية تغمرني ، ونظراتي المخمورة ، تشي بي ، وسايرت انت غضبي ، وحضنت روحي المتمردة ، وسرت معي الى بيتي ، الى أمي التي تنتصر لك دائما ، الى شرفتي العاتمة ، واعطيتني الهدية التي حملتها الي والتي رفضتها أثناء غضبي .. نظرت اليك طويلا وأخذتها منك ولم أقل لا .. بل لم أستطع القول خوف أمي ...

كل هذا والروح المتمردة ساردة في تمردها ولعله لها بعض العذر الذي تعرفه .. لا لن تهدأ الروح الثائرة ، فهناك أحاديث طويلة تريد أن تودعها قلبك الكبير .. ساعة تخلو بك تلك اللحظة الخالدة .. وحلمت بتلك الساعة وعشت معي انتظارها وأعددنا لها العدة وانتهى كل شيء ورددنا معا وأنا اودعك في تلك الامسية الكالحة الى الغد ، ونمت والغد يملك علي دنياي .. الغد الذي لم يأت .. الغد الذي لم المحه .. وتبعد ايها الحبيب قبل ان يضن الزمان الغد .. غدنا المنتظر .. غدي الرائع .. مات غدي قبل أن يرى النور .. وبعدت ايها الحبيب بعدت والكلمة حبيسة الثغر المحموم ، والحسرة تضم القلب المستعر والروح الكافرة .. بعدت وحديثي الطويل لم أقله وكلماتي الهامسة لم تسمعها وغدي لم أعرفه .. حملتك الطائرة بعيدا بعيدا ... حملتك وفي القلب الشقي دمعة ، وفي الكيان الحطيم رعدة .. دمعة الفراق الاليم ورعدة البعد العين ....

خالدة عبد الله

اعلان

صادر عن قاضي المحكمة الجزئية الجزائية بدرعا

الشاكي : فوزي بن أحمد الطلاق من قرية شكوم التابعة الزوية .

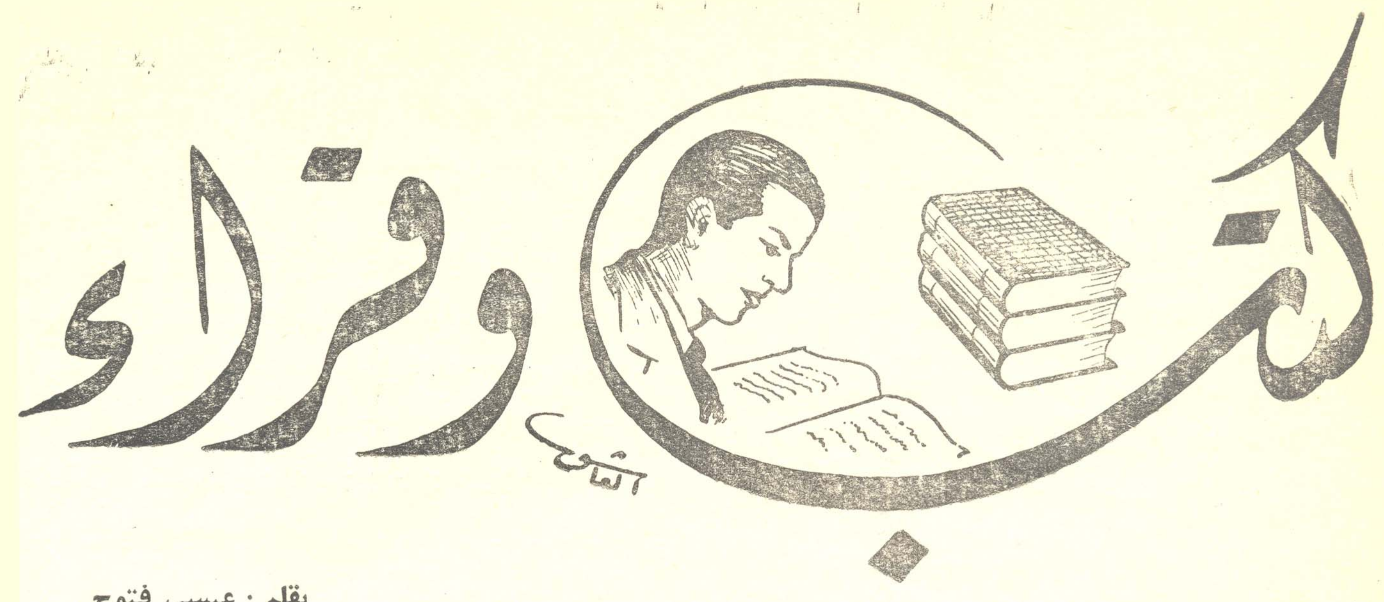
المدعى عليه : محمد علي جمعة من حلب ـ باب النيرب يعمل صائغ .

الجرم : سرقة

حيث أن مذكرة جلب المدعى عليه اعيدت بدون تبليغ بشرح يتضمن عدم معرفته وانه مجهول الاقامة لذلك تقرر تبليغه بواسطة الصحف المحلية وفي لوحة اعلانات المحكمة ضرورة حضوره الى المحكمة يوم الاحد ٣٠ تشرين الاول ١٩٦٠ المعين موعدا لرؤية الدعوى عملا بالمادة/٢٦/من الاصول الحقوقية وفي حال عدم الحضور ستجري بحقك المعاملة القانونية اصولا .

درعا في ١٩٦٠/٩/٢١

قاضي المحكمة الجزئية الجزائية بدرعا



بقلم : عيسى فتوح

لم يتح لي قبل اليوم أن أقرأ شعر حامد حسن مجموعا ، لاستطيع الحكم عليه ، لان القصيدة والقصيدتين لايمكن ان تعطيا صورة صادقة عن شاعرية الشاعر .. لكنني ، كنت كلما قرأت قصيدة له في جريدة « النقاد » ، ازداد معرفة بشعره ، وتحصلت لدي معلومات تقصر عن أن تكون هيكل بحث ضاف ... الى أن أطل علينا ديوانه « عبق » قبل أسابيع فهرعت اليه لاقرأه ، فتكتمل الصورة ، وتتكون جوانبها بعد ان ظلت أرضيتها خاما فترة طويلة .

تفتح الديوان فتطالعك قصيدته الاولى « جارة » هي وجه القماش لشعره بقولنا المألوف لانها تجربة واقعية جرت لشاعرنا في مصيفه (الدريكيش) الذي يزخر بالمصطافات كل عام ، للاستشفاء أو للمتعة ، وحامد ككل شاب ، وككل شاعر ، يطوف ليتأمل وجوه الحسان ، لعله يظفر بصيد في النهاية فيقضي صيفه سعيدا مسرورا ... وفي الخريف ، عندما يبدأن بالنزوح ، تذوي أمسيات شاعرنا ، فلا وجه مصطافة يبرق ولا طيف غرام يهل .

لقد تألم شاعرنا عندما غادرته تلك المصطافة دون سابق علم ... جاء غرفتها كعادته ، ليراها ، لكن ، للاسف ، لم يجد غير بقايا قطع من سكر بعثرت فوق زوايا الطبق كما يقول ، وغير منشفة بللت بالدمع ، وكتاب سلم من النيران التي التهمت أشياءها العزيزة عليه !!. انها آثار ذكرت الشاعر بماضيه العطر المندى ... هذه التجربة ليست فريدة النوع ، فتاريخ الشعر حافل بقصص الفراق يوم كان الرحيل أحد مقومات الحياة العربية التي تعتمد على التنقل طلبا للمرعى ، يقول حامد :

غادرت كوخي ... ومحراب الهوى
ومضت للعالم المنطلق
تركت لي ملء بيتي عبقا
أنا لا أعبد غير العبق ...

من هنا ولدت قصيدة حامد ، من تجربته العاصفة العنيفة التي احتاحت نفسه فأنطقتها بالشعر ، ولو لا هذه التجربة لظل صامتا ، أو لقال شعرا غير هذا الشعر . لذلك كنا ننصح الشعراء بضرورة التجربة الذاتية لان التجربة ، لاأقول هي كل شيء في الشعر ، بل ركن هام من أركانه ... غير أن الشاعر

المحذي يقف مقعود اللسان ينتظر الظروف والاقدار أن تسوق له تجربة تنطقه بالشعر ، هو بلا شك شاعر فاشل !..

يجب أن تقترن التجربة بالابداع والموهبة ، والشاعر الموهوب يستطيع أن يخلق التجربة ، أن يحضرها وان كانت بعيدة ، ان يثير فيها روحا شعرية وان كانت جامدة لاتنطق بشيء ، ويستطيع أخيرا ان ينمي جوانبها ويضخمها فتبدو تجربة غنية مثمرة .

فاذا عدنا الى (عبق) نفسه رأينا أنه ديوان صغير الحجم ، يحوي ، أكثر مايحوي ،شعرا وجداني الطابع ، هو فيض نفس رهيفة الحس ، دقيقة الشعور ، حادة الانفعال ،

يؤلمها كل شيء ويفرحها كل شيء ، ولعمري ان نفس الشاعر يجب أن تكون هكذا والا كان الشعر نظما ورصفا وقوافي مشدودة في نواصيها شدا ... والذي يبلور هذا الحس قدرة شاعرنا على المطابقة بين اللفظ ومؤداه فاذا قال :

غنة الارغن فيه وبه

بحة الناي وبوح المزهر

سمعت من تتابع حروف الغين صوت أرغن يرتجف ، ومن صحل الحاءات صوت الناي المبحوح ... والحق ان الشاعر اذا ماوعى هذه الخاصة التي تنفرد بها العربية ، أو استطاع ان يضمنها شعره ، عفوا : لاعمدا ، كان شاعرا مبدعا فذا .

يعتمد شعر حامد حسن على الوصف ، الوصف بالالفاظ لا العبارات فيقول في وصف الغيد مثلا :

غيد ، رشاق ، عاطرات ميس الاعطاف عطل

وفي وصف الفتى العاشق :

متواصل الزفرات أسفع أشعت الفودين أعزل

وفي وصف النهد :

نهد غوي ، مترف ، بطر

مموج ، مشرئب ، اهوج ، قلق

وفي وصف الغدائر انها عاطرة ،متموجة ،متوهجة خضلة،كثيفة ... وهذه الخاصة تبرزفي غير موضع من شعره .

ولا يسلم حامد من الطفرات الوجدانية التي تكاد تنسيه ذاته ، وتنسيه مبادىء الدين ،فيرى أن الله لايعبد الا في بيت رفع الحب دعائمه ، كقوله في بيته وكوخه :

رفعتهما لله والحب معبدا

وفي غير بيت الحب لايعبدالرب!!

يضاف الى ذلك أنه جعل الحب والله في منزلة واحدة ، لكن ذلك لايعني خروجه على الدين أبدا ، لان الطفرة الوجدانية اذا تملكت الانسان زلزلت مفهوم القيم في نفسه ، واعطته صورة مهزوزة لها .

وقبله قال شوقي في وطنه :

أدير اليك قبل البيت وجهي

اذا فهت الشهادة والمتابا

وتشارك ميزة الوصف بالالفاظ التي ذكرتها آنفا ميزة التصوير ، انظره مثلا في قصيدته (حقد)يصف كوخه وقد لعبت به الرياح ،فانتثر أطفاله على حصيرهم الممزق يعذبهم الجوع :

كوخي تراقص في العراء على أكف الزمهرير

نثر القطيع ، قطيع أطفالي ، على مزق الحصير

الآكلين ، على مرارة جوعهم ، ألم الشعور ...

ومهما يكن من أمر ، فحامد حسن لايستطيع التفلت من عاطفة الابوة ، شأنه شأن كل أب يبعد عن فراخه

الصغار فيروح يسأل نفسه عنهم ، وعما طرأ عليهم في غيابه ، فقد وعدهم بالعودة السريعة لكنه لم يوفق:

يا بيتنا ... في عدوة الوادي
كيف الصغار الزغب اولادي

واعدتهم يومين ثم انقضى
عام وما انجزت ميعادي

من يغدق النعمى عليهم ومن
يحنو على حقلي واورادي.

ويظهر ان غيبته طالت اكثر من الحد اللازم حتى استغرقت الشتاء وبعض الربيع الى ان جاء نيسان بأطيابه :

هل أخلف السمار ميعادهم
يا بيتنا هل أقفر النادي ؟

هل طاف نيسان وأطيابه
في دارنا هل غرد الشادي ؟

قال القدماء : الشاعر ابن بيئته ، وهذا القول يصح في حامد الذي صدر في شعره عن معطيات بيئته ، واستخدم أشياءها التي تتراءى امام ناظريه كل يوم ، فكان لقريته النصيب الاوفر ، كيف لا وفي القرية تتمثل البساطة ، وتتمثل الطبيعة البكر بأجلى مظاهرها ،بل اي منظر في القرية لايوحي بالشعر ؟ :

قريتي في السفح والسفح اخضرار واخضلال
تحتها الوادي وخلف السفح تمتد التلال
دار فيها الغاب والتف به خصر وشال

مساكين هم الشعراء ، انهم يعزفون عن الاصفر الرنان ، وينعتقون من المادة وادرانها ، ليقنع واحدهم بعرزال حاكه من أغصان الشجر ، أو بكوخ حقير ناء في ظاهر البلد ، ليس فيه من متاع الدنيا غير طاولة بسيطة وأقلام واوراق مبعثرة و ... ومع هذا يرون أنفسهم أغنى الناس راضين أو مصطنعين الرضى ، وحامد احد هؤلاء اذ يقول في قصيدته (كوخ) :

شاعر ان يعبس الدهر ابتسم
عاش أغنى الناس لكن بالالم

مرحبا بالجرح هدارا ولا
بورك الجرح اذا الجرح التأم

الم .. شعر .. عذاب كلها
نعم فليغدق الله النعم

لاتحطمه وفي قيثاره
فيض وحي واضاميم نغم

لو ترى كوخي وأطفالي به
بعضهم : نام وبعض لم ينم ...

هذه هي حقيقة الشاعر ، كل شاعر، يبتسم اذ عبس الدهر ، ويعيش اغنى الناس بألمه كما عاش من قبل الشاعر الفرنسي الفرددي موسيه ، ولا يرتضي الجرح السريع الالتئام ، أو الجرح الضيق المدى ! وفوق هذا تنعكس المفهومات في نظره ، فبينما يرى الناس الالم شقاء يراه هو نعمة وسعادة ، وبينما يرون العذاب ضربا من الكفر يراه بردا وسلاما ... أفلا نقول اذن : بوركتم ايها الشعراء ونعمت هي مبادئكم ؟!.

وهنالك مشكلة كبرى لاينسى ان يقول كلمته فيها ، هذه المشكلة هي « الشاعر والوظيفة » هذان العدوان الصديقان او هذان التوامان البغيضان ان صح التعبير ... ولعله لم ينطق بها الا بعد أن اكتوى بنارها فتلظى ، وأكلت من لحمه حتى بشمت ، فحق له ان يسميها (سدوم) .

وهو اذا تعلق بها فلكي تقيه شر العوز ، ولئلا ينطرح على الاعتاب ذليلا :

علقت بها مخافة ان ترائي

— وبي عوز — على الباب اللئيم

نزلت بها — على كبري — مقاما

يهون على الكرامة والكريم

انفت من المذلة من وقوفي

على الاعتاب ، من عنت الزعيم

انتهز هذه المناسبة لاقول للمسؤولين : لاترهقوا الشعراء بالوظائف ، لاتقيدوهم بالمراسيم والشكليات لاتزرعوا في دروبهم أشواك الاعمال المضنية التي تمحق المواهب ، بل افتحوا لهم أبواب الابداع ليقولوا الشعر .

لم يقف حامد حسن عند اللون العاطفي في شعره ، بل خاض غمار الشعر الوطني ، فذكرنا بسليمان العيسى ويوسف الخطيب ، والشاعر القروي ... ان قصيدته (شعب وثورة) تقوم مقام ديوان بكامله ، لهذه الروح القومية الوثابة التي تكاد تتفجر بركانا وقنابل ... والذي زاد قصيدته توفيقا ، اختياره روي الدال المكسورة ، فاذا تلوت القصيدة أحسست أن كل قافية فيها قصفة مدفع أو شظية قنبلة ، اضف الى ذلك اكثاره في التوكيد بالقسم حينا وبالتكرار حينا آخر وبادوات التوكيد حينا ثالثا :

آمنت بالشعب المجيد وثورة الشعب المجيد

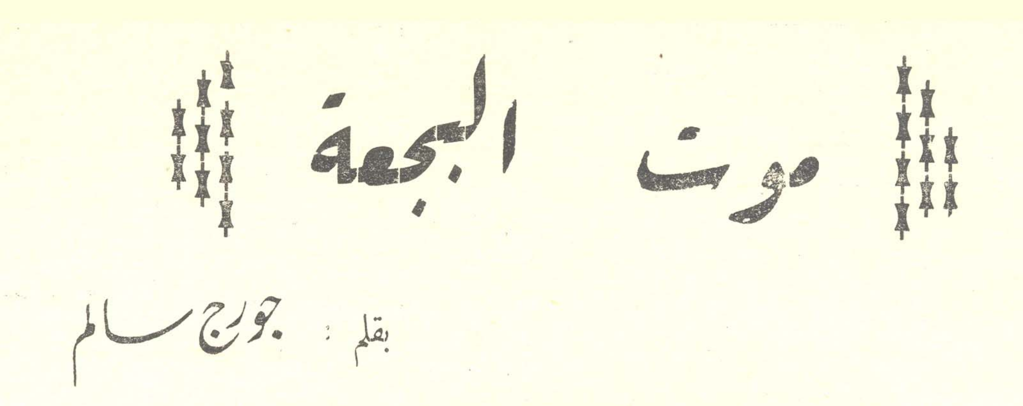
بالمارد العربي ، بالعربي بالبطش الشديد

بالناصر الجبار يقهر كل جبار عنيد

وشيء ثالث زاد القصيدة تأثيرا وشدة وقع ايراه الالفاظ التاريخية الموحية التي تبعث في النفس الارتعاش والرهبة كبور سعيد ، دمشق ، يزيد ، الصعيد ، القدس ، حطين ، صلاح الدين والفاظ ، العرب ، العروبة ، عبد الناصر ، الشهيد، الملاحم ، الصهاينة ، اليهود ، الثورة ، الشعب ، الحديد ، النار ، و ...

من هذه الاشياء الدقيقة نستطيع أن نحكم بالجودة على شعر حامد حسن ، لان التنبه الى مثل تلك الالفاظ ، وجمعها في قصيدة واحدة ، ان دل على شيء فانما يدل على فيض في الشاعرية وبراعة في القول وسماحة في العطاء وتفهم أصيل لادق المعاني الشعرية ، دع عنك المتانة والجودة الصفتين اللتين يفتقر لهما شعرنا الحديث أيما افتقار.

عيسى فتوح . دمشق .



موت البجعة

بقلم : جورج سالم

في نبأ عابر نشرته احدى المجلات ان راقصة الباليه (ن ...) قد توفيت في الشهر الماضي .

. * . * .

كنت جالسا الى مكتبي أشرب القهوة وأدخن ، على عادتي صباح كل يوم ، حين وقع نظري مصادفة ، على هذا النبأ اليسير الذي صاغه المحرر بكل موضوعية وحياد. وتريثت هنيهة أفكر . الراقصة (ن ...) ماتت . أما كيف ماتت ، وأيان ماتت ، والظروف التي لابست موتها ، فأمور لم تر الصحيفة موجبا للاشارة اليها . وان أكن أنا الذي عرفتها أياما قليلة ، ورافقتها ساعات من عمرها تهمني مثل هذه التفاصيل الصغيرة . ترى كيف ماتت ؟ أعلى خشبة المسرح ، كما توقعت هي ، أم كيف ؟..

وغامت الصور والخواطر في ذهني ...

عرفتها منذ سنة ونصف السنة تقريبا .. كان ذلك حين قدمت فرقة الباليه الكبرى لتحي بعض الحفلات في بلادنا . فانتدبت لمرافقتها في تجوالها وتطوافها بين المدن ، كان من واجبي أن أؤمن للفرقة ماتحتاج اليه ، واترجم لها اذا دعت الحاجة الى ذلك ، وأعلن من وراء الميكرفون برنامج الحفلة واسماء الفنانين والفنانات في كل حفلة تحييها الفرقة .

رافقت الفرقة اسبوعا واسبوعا ، فسافرت معها وصحبتها ، حتى نشأ بيني وبين أفرادها بعض المعرفة . ومن خلال ملاحظتي تبينت ان الراقصة (ن ...) وهي راقصة الفرقة الاولى، تبدو على شيء من الوحدة والكآبة ، وظلت هاتان الصفتان تلازمانها طوال اقامتها في ربوعنا ، كان هذا في النهار ، أما اذا جن الليل فقد كانت ترتدي من الاثواب والاصباغ مايعطيها وجها آخر وشكلا آخر ، فاذا هي فتاة تختلف عن الفتاة التي أعرفها وأراها كل يوم .

ثم تهيأت الفرقة لمغادرة العاصمة والانتقال الى مدينة أخرى ، فركبنا سيارة كبيرة وسرت بنا في ليلة قمراء من ليالي نيسان .

كان مقعدي بحذاء مقعدها . أكان هذا نتيجة مصادقة أم انني تعمدت ذلك وقصدته، الحق انني لا أستطيع ان اجزم برأي في الامر .

ورحت أحدثها . كانت تصغي الى أحاديثي بشيء من اللامبالاة . فقد وصفت لها الطريق التي سنجتازها ، والقرى التي حواليها ، والمدينة التي نقصد ، وسكانها وعاداتها . الا أنني كنت في شوق الى اقتحام عالمها ، عالمها الذي بدا لي كئيبا، ولو للحظات . فقلت لها فجأة :

ـ أراك كئيبة جدا ؟

وابتسمت ابتسامة صغيرة ازداد بها وجهها شحوبا وبرزت عظام وجنتيها الضامرتين قالت :

أ ه :

كان قمر شاحب يودع شهره ، يرسل على الافق نورا أصفر باهتا ، واذ تستدير السيارة في أحد المنعطفات ، يعكس نوره ذاك مع وجهها فيبدو كأنه يصبغ وجهها بصفرته الباهتة .

قلت لها بعد حين :

ـ أنت تحبين الرقص ، لاشك .

فعراها شيء من الحماس وهي تقول :

ـ أحبه أعمق الحب ، ان الرقص بالنسبة الي هو الهواء الذي استنشق والنسغ الذي أعيش منه . انه الحياة بالنسبة الي .

ثم أضافت بعد قليل :

ـ ولكن بعض الناس ليسوا سعداء بالحياة، كما ان بعض الراقصين والراقصات ليسوا سعداء بالرقص .

قلت وقد شجعني استرسالها في الكلام :

ـ وما الذي يشقيك منه ؟

ـ كل مافيه شقاء . تعب وضنى وجهود لاتهدأ لحظة ، وتمارين مستمرة طوال الايام ، ونظام في التغذية دقيق صارم لكي لايزيد ثقل الواحدة منا قيراطا فتفقد رشقاتها . كل هذا في سبيل اي شيء ؟

قلت لها :

ـ في سبيل الشهرة والمجد . تصفيق الجماهير وهتافها ، في سبيل الابداع الفني .

فمضت لحظة طويلة ثم قالت :

ـ هذا صحيح ، ياصديقي ، ولكن يخيل الي في بعض ساعات الكآبة والضيق والقلق ان غاية فننا هي لقمة العيش . اما ماذكرته عن الشهرة والمجد والتصفيق والهتاف ، فلغو لاطائل تحته . أترانا اذا ماجعنا أو جاعت أسرنا نطعمها تصفيقا وهتافا . والجمهور ؟ أتظنه يعرفنا أو يحبنا انه يحب الجذر اللذيذ الذي نمنحه اياه فينسى شقاء آلامه ، ويصفق للمعاني التي يشعر بها ، ولكننا وحدنا الذين نستطيع ان نعكسها له حركات حرة على خشبة المسرح .

لم أكن لاتوقع مثل هذا الكلام من فنانة جابت العالم وحظيت بالتقدير حيث حلت كانت تشعر بالكآبة ، وكانت الوحدة ترهقها . وحينما أتاح لها الليل متنفسا تتكلم فيه ألقت الى هذا الغريب الذي لايربطها به سبب ببعض ماكان يجيش به صدرها .

قلت لها بخبث :

ـ ومع هذا كله ، مايكون موقفك اذا طلب اليك ان تتركي الرقص وتعيشي من عمل آخر.

فأجابت بذعر :

ـ كلا ، كلا ، لست أستطيع ذلك . ان الرقص بالنسبة الي هو الحياة كما قلت لك . ومهما كانت الحياة متعبة شاقة فان الانسان يظل متعلقا بها .

وصمتت هنيهة ثم التفتت الي تسألني :

ـ أنت مؤمن بوجود الله ؟

قلت :

ـ نعم .

فقالت :

أن ايمانكم ، معشر الشرقيين ، يخفف عنكم فراغ الحياة وبؤسها . أما أنا فقد اضعت الايمان منذ مدة طويلة ، ولم يعد يعمر نفسي الا الفن . ولكنني في بعض لحظات الكآبة ، بدأت أشك في الفن نفسه.

ـ قد يعود الانسان الى الايمان في اية لحظة ، اذا هو فتح له قلبه .

فهزت رأسها بعصبية وقالت :

ـ كلا ، لا اعتقد انني مستطيعة ذلك يوما .اتصور احيانا شيئا تسمونه الحياة الآخرة ، فيها الفرح

والسعادة ، ولكنني لا ألبث ان اعود الى الواقع كما يعود الانسان من حلم بهيج فيجد ما حوله ثابتا لم يتغير ، وان كان يراه أضغاث احلام لا نفع فيها .

وشعرت باطراقي وحيرتي فأرادت ان تغير من سير الحديث فقالت :

ـ لقد شهدت الحفلات ، فما رأيك فيها ؟

قلت بحماسة :

ـ ممتازة جدا ورائعة ، وان كنت لم ارها الا من خلال الستائر ، وانا واقف وراء الميكروفون اذيع برنامج الحفلة .

قالت :

ـ ألم تر موت البجعة ؟

ـ رأيت ما تيسر لي أن أرى منه .

فأضافت تقول وفي صوتها اهتزاز ألم هادىء :

ـ كل منا بجعة ، ولا بد للبجعة من ان تموت يوما .

كنت أعرف انها هي التي تؤدي هذه الرقصة ، وكان خوفها من النهاية يحز في أعماقي .

ـ أتعرف ؟ كانت هناك راقصة قبلي في الفرقة ، تقوم بهذه الرقصة .

ـ واين هي اليوم ؟

ماتت على خشبة المسرح . رقصت تلك الليلة كأروع ما يكون الرقص ، وحين انتهت واستلقت على الارض صفق لها الناس طويلا ، الا انها لم تستجب لهم لانها لم تستيقظ بعدمن رقدتها. لقد سبقت هذه الراقصة راقصات كثيرات ، وكان مصيرهن كمصيرها . وهاأنذا أحل محلها منذ أكثر من خمس سنوات ، وسينتهي بي الامر الى ان تحل غيري محلي . لن يستطيع الانسان ، أبدا ، أبدا ، ان يثبت في الارض الاشياء الجميلة ...

ورأيت أنها متعبة ومتألمة فآثرت الصمت ، ولاذت به هي الاخرى حتى مطلع الفجر حيث وصلنا الى المدينة ، واستقر كل منا في غرفته في الفندق الكبير.

في مساء اليوم التالي أقيمت الحفلة ، وحينأزف دور الراقصة (ن ...) اقتربت مني قبل ان اقدم رقصة موت البجعة وهي الاخيرة في البرنامج ، وهمست في أذني :

ـ حين تنتهي من التقديم ، اترك المسرح واجلس بين المتفرجين . يسرني جدا ان ترى هذه الرقصة فهي رقصة حياتي كلها .

وامتثلت لطلبها ، فاخترت مقعدا خاليا في آخر الصالة ، وجلست عليه في انتظار بدء الرقصة .

ورفع الستار وبدأت الانغام تعزف . ثم برزت هي من الظلام كما يبرز الفجر من الليل . لم يكن يرى الا ظهرها . وراحت ترقص على ايقاع الانغام ، وهي ترنق بيديها كأنها الطير الذبيح ، واستدارت فترة ثم عادت سيرتها الاولى ، والانغام تقوى وتبطىء ، والراقصة تجوب المسرح حرة القدمين كأنما الارض اضعف من ان تجذبها اليها ، وأنسيت الزمن وشعرت كأنني بحضرة الابدية حيث الفرح الكامل الذي لاتشوبه شائبة من شوائب الجسد والتراب . وعادت الراقصة ترنق بذراعيها والاضواء تحيط بها كأنها هي التي تجذبها اليها . ولم تلبث ان ارتمت ارضا مثنيا بعضها على بعض ، متكومة على نفسها ، واذ شعرت البجعة بنهايتها ارتجفت لحظة ، ورمحت برأسها ، ثم هدأت الى الابد .

*

لم تذكر الصحيفة التي بين يدي الآن ، كيف ماتت الراقصة ، ولا اين ماتت ، ولا من سيخلفها في هذه الفرقة . أتراها ماتت على خشبة المسرح بموت البجعة التي تقمصت نهايتها أم ماتت في احد المستشفيات بعيدا عن الاضواء والانوار ، وتصفيق الجمهور واعجابه ، أتراها قد تغلبت على وحدتها وكآبتها بالموت ، أم ان الوحدة والكآبة سيلاحقانها بعد الموت ايضا ، وهي جسم هشيم راقد تحت الصفاح ؟!

حلب — جورج سالم

العدد الماضي في الميزان

كلمة أولية :

اصبح النقد عملية عسيرة بجهود أقلام متطرفة ذهبت الى ان استنباط ميزان موضوعي له أمر مستحيل لان الادب طفرة من الذات تولد بقيمتها الخاصة اللاصقة بشخصيتها ... ومع ان ذلك صحيح فانه لايعني أبدا ان العمل الادبي يبقى بعيدا عن امكانية التقييم من الخارج ـ من الذوات الاخرى ـ ذلك انه من العبث الاكيد ان نزعم انفلاقنا عن الآخرين وانقطاع كل الصلات بيننا واذا كانت النمطية مما لايخطر لنا ببال فان النهر الانساني العريض يضمنا جميعا ، وتفاعلنا المحتم ضمن تجربة كبرى شاملة يجعلنا أكثر تقاربا فتصدق كلمة هيمنجواي في الادب كما هي في الحياة .

(لايمكن لانسان ان يكون جزيرة مستقلة بذاته ..)

ان مدى انسجام الاديب مع روح تجربة جيله الكبيرة واخلاصه لها ونجاحه في التعبير عنها من خلال ذاته هو مقياس يمكن اعتماده مبدئيا في تقييم أي عمل ادبي وفني ، وهذا المقياس ليس قاصرا على المضمون فقط بل يتعداه الى الاداء والجمالية الفنية .

القصائد :

ست قصائد في العدد الماضي تطرح على قلم التحرير سؤالا لامفر منه « الى متى تبقى مجلة الثقافة تتبنى هذا النمط من الشعر والشعراء ؟ »

١ ـ حقد : حامد حسن .

قصيدة بلا تجربة . المأساة فيها ضبابية حتى لاتحس أن هناك مأساة حقيقية . يسخر الشاعر « الا بدال » في عدة مواضيع لرتق ماينقطع من الموسيقى فتجيء التعابير مكرورة باهتة مملة : أمثلة :

ـ نثر القطيع قطيع أطفالي على مزق الحصير .

ـ والليل ليل الرعب ينشر فوقهم صمت القبور

ـ والحقد حقد الجوع في جنبي محتدم الهدير

ثم ان القصيدة لاتخلو من التراكيب الضعيفة

(الآكلين على مرارة جوعهم الم الشعور)

لايتقبل الذوق تعبير (آكلين الم الشعور)

وهناك التراكيب المتناقضة .

(أنا كالدجى العربيد خيم بين اجفان الامير)

كيف يتوافق الدجى العربيد (بحركته) مع الفعل السكوني (خيم) .

أعجبني من هذه القصيدة قول الشاعر (عن الحقد) .

أطعمته جسدي فساومني لاطعمه ضميري

٢ ـ الجرح المتجاوب : صالح الخرفي

قصيدة تهتز بين التقريرية الرتيبة والتساؤلات المبالغ بها . الاداء المباشر والالفاظ العاجزة المستنفدة تجعل منها رصفا غليظا لا أكثر .

(فتعالى من الجزائر صوت : أمل العائدين نحن فداه) .

هل بقيت جريدة لم تقل هذا الكلام . . ومع ذلك يصر الاستاذ الخرفي على استعمال (نحن فداه) مرتين في ثلاثة أبيات .

ان فهم الالتزام خطأ على انه (التوجيه) ادى الى نتائج سيئة في أدبنا . . والعنتريات وشتم الصهاينة ليس ادبا البته .

٣ ـ أين الجواب

حكاية صغيرة عن الحبيب الذي يصد محبوبته وراغبا ـ الالفاظ العاهرة متوفرة جدا: عذالك ، الحاظي ، السكر ، ثناياك .

وبدهي أن لاتمر هذه الالفاظ على الأذن بدون ان تخلق جوا من الغزل الرخيص الذي تعود جذوره الى عصر الانحطاط . أعتقد ان الاستاذ التجفي يعيش في عالم آخر وله عذره .

٤ ـ درب البساتين : محمود البارودي

مضمون القصيدة واداؤها متكاملان لاينفصلان وهذه القصيدة تعيد لاذهاننا تقسيم المؤلفين لاغراض الشعر في كل عصر ، ذلك التقسيم المدرسي المهترىء ـ فغرض هذه القصيدة الوصف !

أيها الاستاذ :

ليس شاعرا ذلك الذي يقصر حروفه على نقل صورة فوتوغرافية ، ان (الكاميرات) تملأ البلد ـ يجب ان ارى وجه الانسان من خلال شعرك ، أما (درب البساتين) أو (وصف يوم ربيع) فتلك موضوعات انشائية لطلاب دون البكالوريا .

٥ ـ الصمت : محمد الحريري

ربما يعتقد الشاعر ان قصيدته رمزية ـ وليس هذا مجال البحث في الرمزية والخلط في مفهومها ، لكن المبدأ الاول المعروف جيدا : أن الرمزية قبل كل شيء هي ذوبان المحسوسات في لحظة رؤيا وبروزها على هيئة أخرى ملونة بانفعالات الشاعر ـ فهي ليست معادلة (جبرية) تتطلب تعويضا لحلها على غرار

الاحمر . . . الحرية .

الاخضر . . . الامل .

الابيض . . . البراءة .

هذا من ناحية ـ ومن ناحية أخرى فهناك تنافر صميمي بين روح القصيدة وعرضها اذ ان الشاعر منذ البيت الاول يحدث جلجلة وصخبا فلا تتواجد الاذن مع قدسية الصمت التي يؤكدها الشاعر .

ان الشعر ليس أفكارا وانما هو حياة هذا هو المنطق . ان حدس البحتري يؤدي الى خلق جو متكامل حي في (سينية) الرائعة فلتتأمل البيت التالي منها .

وتماسكت حين زعزعني الدهر التماسا منه لتعس ونكس الا نرى كيف يجعل البحتري ـ بعفويه ـ موسيقى بيته متفاوتة بين الصعود والانخفاض والقلقة معيدا خلق التجربة من جديد .

والاستاذ الحريري يستعمل المجازات بشكل ناب يصدم محاولة الانسجام مع قصيدته .

حناجر الهذر ـ

ومقلة الهذر ـ

ثم الا يقرني الاستاذ الحريري أنه استعمل كلمة (هذر) ـ على مافيها من نبو ـ أكثر مما يجب .

٦ ـ أأنت لهذا ياشعور ويا حس :

بضع أبيات من ضمنها هذه الشطرات :

فلا خاطر يوحي ولا جارح يأسو
فلا قوة تبدو هناك ولا بأس
فلا جامح صعب القياد ولا سلس
فلا اليوم مرجو النعيم ولا أمس
والحكم للقاريء الكريم !

القصص :

١ ـ الأصابع المتمردة : غادة السمان .

شاء ربك ان يكون للادب النسائي في هذا البلد حكاية تنبعث منها روائح العطور الباريسية في زوايا الصالونات الاستقراطية . وخرقوا آذاننا بأسماء رنانة وبهروا أعيننا بكتب مترفة الغلافات وعبثا حاولنا اعتصار رحيق حقيقيي كان الداخل فارغا رغم جهود الاقلام المأجورة التي انطلقت تمجد ثورة هذه الاديبة وتلك على الفساد الاجتماعي: أي ثورة ؟! وأي فساد !.

فهل في مخطط غادة ان تصبح ثائرة صغيرة كالاخريات ؟ أنا لم أقرأ لها سوى قصتين ـ وهذا قليل لتكوين رأي ـ سننتظر أشهرا قبل أن نعلم أين تلقى هذه الكاتبة مرساتها ـ ولنر الآن ماهي (الاصابع المتمردة) :

قصة تحاول النفاذ الى أزمة الوسط البرجوازي من خلال أزمة الحلاق (جاك) في اطار اجتماعي تسهم في تكوينه شخصيات مثل (سوسن) و (تاتا) و (دودي) ... وآخرون .

اختارت الكاتبة ان تعرض قصتها ، بشخوصها وانفعالاتهم الدقيقة بطريقة الرصد من الخارج مما يثير مشكلة فنية في الاداء القصصي لا تزال قائمة ولا يحلها سوى مهارة القاص : أعني : السؤال فيما اذا كان يحق للكاتب ان يكشف انفعالات أكثر من شخص واحد مستعملا السرد المباشر وكأنه اله عالم بما تظهر النفوس وما تبطن .

وبينما يقول بعضهم بأن للقاص كل الحق في ذلك باعتباره خالق اشخاصه يجيب آخرون بأن ذلك حري باشعار القاريء انه ازاء عمل كتابي فقط مما يضعف تأثير القصة عليه . ومع هذا فان غادة تنجح في ابراز شخصية الحلاق جاك وفرضها على ذهن القاريء مع تعثر في بعض المواقف .

فانهزامية جاك ومذلته التي تحسسها قبل ان يجبن عن ذبح خروف كانت من الشدة بحيث يصعب تصديقها لو لم تعرضها غادة خطوة ، خطوة ، وفي موقف بعد موقف وكل مرة أكثر وضوحا من سابقتها حتى لا يعود القارىء متوقعا من جاك الا مزيدا من التخاذل .

ومن أنجح هذه المواقف ذلك الذي عرضته الكاتبة ببطء لكن بحدة عندما طلبت سوسن الى جاك قص شعرها (الذي يعبد سمرته وصبغه احمر) .. والموقف الذي يصل فيه ضعف جاك الى القرار (يتمنى ان يحدث شيء يدمر ما حوله ـ ان يشعر ان في الحياة ظاهرة طبيعية على الاقل تتجاوب معه) .

لقد كانت شخصية جاك واضحة نجحت الكاتبة في ابرازها بشكل جيد ـ غير ان شخصيات القصة الاخرى كانت على درجة من البهوت بحيث لا يذكر القاريء عنها شيئا بعد نهاية القصة ومسرح القصة كان محجوزا باستمرار للحلاق مع انه صالون يعج بالكائنات كثيرة الحركة (النساء) ففقدت القصة عاملا رئيسيا يربطها للحياة .

تعليقات الكاتبة المتابعة تقطع انسياب الحوادث الطبيعي في نفس القاريء لتذكره بأن وراء كل هذا (غادة) حيث كان عليها ان تختفي ـ واداة التشبيه (كأن) هي مفتاح التعليقات التي تقف في الحلق ـ وليت الكاتبة تنسى (كأن) اللعينة .

يشفع للكاتبة ان هذه الاخطاء الفنية ملازمة للمحاولات القصصية الاولى ـ وعندما يأتي اليوم الذي تصبح فيه غادة قادرة على العرض القصصي مقدرتها على رصد الاشخاص وفهمهم فان كاتبة جيدة ستولد ـ هذا اذا لم تتحول الى لون ادب الصالونات

٢ ـ الديدان تحب أكل العيون !

عندما يشاء الاستاذ اسكندر لوقا فانه يحرك قلمه بمهارة وينتزع تجربته من تراب الحياة لا من ضباب الوهم .

هذه القصةتخلو من العقدة التي لايزال كثير من كتابنا يعتمدها عنصر اثارة وتشويق للقاريء ، بل وتكاد القصة تخلو من الحدث .

حفار قبور حيادي ازاء العالم والاشخاص ، الف حادثة الموت التي هي مصدر قوته ومعيشة عائلته . (ان الناس يموتون على أية حال وهو يستطيع أن يشق معه حفرة في اليوم !)بهذه البساطة يرى الحفار الموت .

لكن عندما كان الميت طفلا لم يأخذ الحفار قضيته بنفس السخرية والبساطة ... أحس أن الأمر مختلف ، غير أنه لم يتحول بفجاءة درامتيكة الى قلب حنون يحتضن مآسي الآخرين . . . كان احساسه غير مركز ولم يستطع ان يتعاطف كثيرا مع دموع الاب الحزين .

ثم يسأل الاب فجأة عن عمر ابنه الميت فيجيبه ـ تسعة اشهر .

ـ تسعة اشهر ؟ !

ونذكر هنا ان أصغر اولاد الحفار واحبهم اليه بنفس العمر . ترتبط القضية الانسانية (موت الطفل) بقضيته الذاتية (طفل بنفس العمر) ولاول مرة يتمرد في نفسه احساس ان بطن الارض يجب ان يمتلأ . لقد كانت تلك لقطة انسانية رائعة في قصة اسكندر وراءها شخصيات حياتيه لانماذج فكرية .

٣ ـ وفاء

منذ الجملة الاولى ندرك أننا ازاء مقالة بها حكاية لا أمام قصة قصيرة .

(كانت ابتهاج تذرع ارض الشرفة جيئة وذهابا وهي تنتظر بفارغ صبر اوبة زوجها لتبثه شوقها العميق وتطلعه على الافكار الجميلة التي تدغدغ مخيلتها) .

ان الكاتب ليحشر نفسه في كل جملة من القصة ليضايقنا بأفكاره (المنفلوطية) عن الحب والوفاء وقضايا مشابهة .

. كل حوادث القصة مفتعلة بدون استثناء : القفز على السلم اربعا اربعا ! ـ الاصطدام الدرامي المباغت ـ خيانة الشريك . . . الخ . . .

ونهاية القصة سعيدة كالافلام العربية

وبعد :

بقيت الابحاث والقيم منها وافر في العدد الماضي :

فالدكتور جميل صليبا يناقش بمنهجية وعمق ماالصق بالفكر العربي من صفات دخيلة ويثبت أن الفكر العربي ليس مرتجعا للماضي ولا تائها في سحب البخور وهو لايقل ابداعا عن أي فكر قومي آخر .

والدكتور ابراهيم الكيلاني يمر في عجالة ملمة على التطور المسرحي في الاقليم الشمالي ويرد بطاه الى المسببات ويظهر صعوبة التأليف المسرحي مقارنا بين نجاح المسرح في الغرب وفشله عندنا ـ ويحذر من الخلط والتشويش الذي يخلقه صف الهواة والمقلدين في مسرحنا .

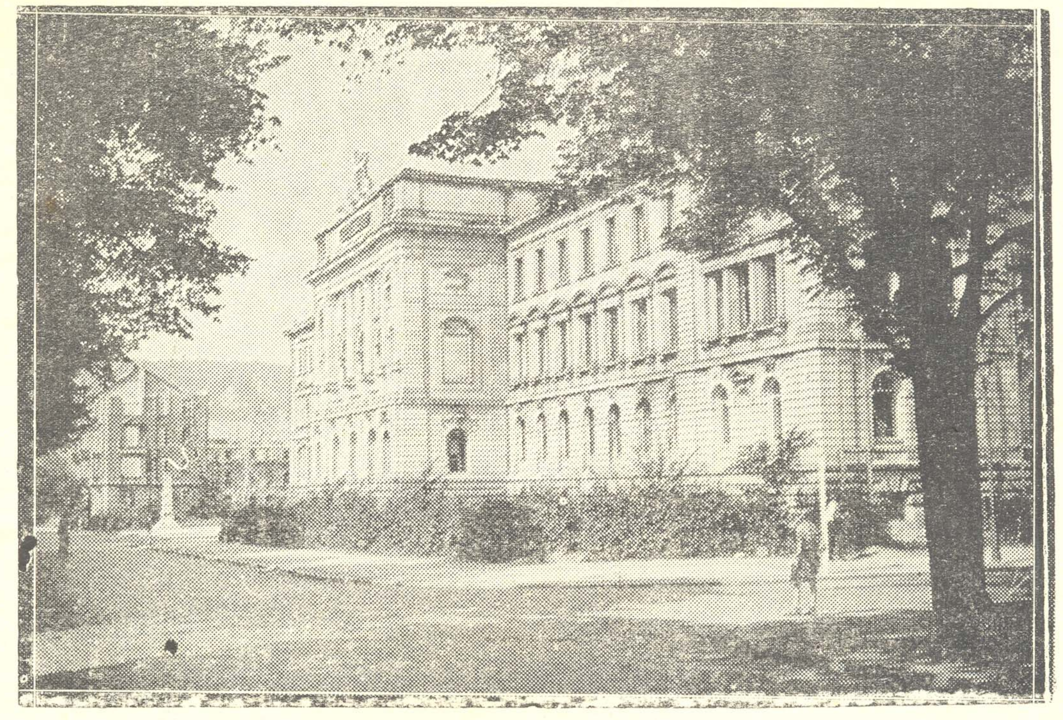
وفي مقالة القيم (الكلمة العربية) يتابع الاستاذ زكي الارسوزي دفاعه عن اصالة لغتنا وحيويتها وامكانيات الخلود فيها .

جامعة فورتسبورغ

على نقطة تقاطع شبكة طرق المواصلات في مابين الشمال والجنوب ، والغرب والشرق ونهر الماين اكبر نهر او جدول يصب في نهر الراين . على نقطة التقاطع تلك تقع مدينة فورتسبورغ التي اطلق عليها هذا الاسم في سجلات الدولة القديمة لاول مرة في سنة ٧٠٤ ، ويبلغ عدد سكانها الآن ما يزيد على ١٠٠,٠٠٠ نسمة وتعتبر من اهم مدن المانيا الجامعية .

وان لمدينة فورتسبورغ هذه تقاليدها الخاصة بها . هنالك كان يجتمع قياصرة وامراء امبراطورية

وفي سنة ١٤٠٢ كان قد تم انشاء وتأسيس اول جامعة في مدينة فورتسبورغ ، ولكن النقص المتأزم في الاموال حينذاك لم يسمح باكمال الانشاء والاستمرار في ادارة الجامعة المذكورة . وبعد مئة وخمسين عاما من هذا التاريخ أي في الثاني من شهر كانون الثاني (يناير) ١٥٨٢ فقط كان بالامكان انشاء وتأسيس الجامعة نهائيا بمساعدة كل من القيصر والبابا وما فتئت كليات العلوم الدينية والعلوم الفلسفية في تلك الجامعة ان اكتسبت شهرة وسمعة طيبة ولكن اعظم واشهر عالم ينتمي الى مدينة فورتسبورغ فلقد كان



الامة الالمانية والتي كان يطلق عليها في ذلك الحين اسم الامبراطورية الرومانية المقدسة . كما وكانت تقام هناك اهم الاجتماعات الكنسية . هذا ولقد لقي المغني العاطفي الكبير والفائق الشهرة في العصور الوسطى واسمه (فالتر فون دير فوجلفايده) مقره الاخير هناك في تلك المدينة .

عالما في الفيزياء الا وهو البروفسور «رونتجن» الذي اكتشف أشعة رونتجن والمسماة باسمه وبذلك قدم خدمة للانسانية تتلخص في امكانية تعيين الامراض عن طريقة بث الاشعاعات المذكورة الى داخل الجسم .

أما الجامعة القديمة فلقد اصبحت منذ مدة طويلة صغيرة للغاية . وبعد ان تلاشت اسوار حصن

مدينة فورتسبورغ شيدت جامعة جديدة على الاراضي حيث كانت تلك الاسوار . وبذلك تكون حي جامعي (مدينة جامعية) حقيقي . ويضم هذا الحي الجامعي عددا من المستشفيات الكبيرة ، ومن معاهد الابحاث العلمية الضخمة . وأما ماجرته الحرب العالمية الاخيرة من خراب على مباني الجامعة فلقد تم اعادة تصليحها ، وكذلك فلقد تم بناء بيوت جديدة للطلبة الذين لا يزال عددهم يرتفع باستمرار ع

وأما جامعة فورتسبورغ والمكتوب فوق بوابتها كلمة (فاي تاي) « من اجل الحقيقة » فيزورها الطلبة من جميع انحاء المعمورة . ويدرس في الوقت الحالي ٤٧٩٩ طالب في جامعة فورتسبورغ بينهم ٧٣٦ طالب أجنبي . وان اكبر كليات الجامعة هي كلية الطب ، ويبلغ عدد طلابها ١٤٤٥ طالبا ، بينهم مئتان وسبعة وثلاثون طالب اجنبي ، وكلية العلوم الطبيعية وعدد الطلاب فيها ١٠٦٥ بينهم واحد وخمسون طالبا اجنبيا ، وهنالك من الطلاب الاجانب خمسة واربعون طالبا يتلقون العلوم الدينية أي الكهنوت ، وتسعة وعشرون يدرسون الفلسفة ، واربعة عشر يدرسون علوم الحقوق والاقتصاد الوطني . وينتمي معظم هؤلاء الطلبة الاجانب الى بلدان الشرق الادنى . والى الهند وباكستان وايران .

قريبا :

عن دار الثقافة بدمشق

القديسة العارية

القاص

عبد الله الشيتي

بقية صفحة ـ ٥٢ ـ

ان كلا من المقالات الثلاثة السابقة يصدر عن دراسة اختصاصية وأنا مع اعجابي وتقديري لها كقاريء لا أجد في نفسي امكانيات الغوص في جزئياتها ومناقشتها . فليكتب ذووا الاختصاص وشكرا للاساتذة الثلاثة .

وليلى صايا سالم .

لك احترامي ياسيدتي وانت من خلال الضنك والارهاق امسكت القلم تتبعين طلاسم كامو المزق الذي دافع عن قيمة كبرى في عالم انحطمت فيه القيم.

كامو المتناقض الذي يرى (رغم انه لاشيء موجود فان الانسان قيمة) ... وانت في الآونة التي أصبح كثيرون يفهمون كامو على انه (عابث لامبال) تلحين على الجوانب الاخرى الاكثر حقيقية من فلسفة (التمرد والصمود) .

لشد ماأعجبني فهمك للدكتور ريو ورامبير وربطك بين ريو وكامو نفسه ـ الاثنان ناضلا بيأس كبير لكن بشجاعة أكبر .

واما تقرير فيما اذا كان كامو وجوديا أم لا فبدهي ان يرد الاختلاف فيه .

لقد انطلق كامو من ذاته في محاولة لفهم علاقاته مع الوجود ومع الآخرين ولم تكن نتائجه العبثية الاولى لتختلف عن عدمية سارتر ـ لكن كامو ثار ضد العبث الذي اكتشف فسحب منه سارتر شاره الوجودي لان سارتر يؤمن بأن الوجود سابق على الماهية ... غير اننا اذا ماأخذنا بعين الاعتبار الوجودي الاب ديكارت نشك في عدالة حكم سارتر ـ اذ ان ديكارت انطلق في الكوجيتو المعروف من ذاته ثم اكتشف وجود الله الذي كان فيما بعد ضامن القيم بالنسبة لديكارت ومع هذا لم يقل أحد عن ديكارت انه ليس وجوديا .

تيسير سبول

بقيــة الصفحــة ـ ٦ ـ

في نشأة الطفل الاولى ، وفي تفاعله مع جو اسرته .

ومختلف الدراسات ، تلمس تشابها كبيرا ، بين الاندفاع الغريزي للانسان المنحرف سلوكه ، وبـين تصرفات الاطفال الصغار والابتدائيين من البشر . فمبدأ اللذة لامبدأ الواقع هو الذي يسيطر عليهم . ودوافع الغريزة لااحكام القيم والقوانين ، هي التي تملي عليهم سلوكهم .

لو راقبنا مجموعة من الاطفال الصغار ، في جـو يتمتعون فيه بحريتهم الكاملة ، لوجدنا كم يختلفون بتصرفاتهم عن الكبار ، واية قرابة بينهم وبين الابتدائيين والمنحرفين . فنرى مثلا طفلا يلهو بلعبتـه ، وآخر بجانبه مشغولا عنه ، ثم لايلبث ان ينقض عليه ليغتصب منه اللعبة . ويقوم النزاع والخمش والعض . والصغار قساة شرسون مع الصغار والحيوانات . وهم انانيون يريـدون كل شيء لانفسهم . لامبـدأ لهم الا اللذة . يستمتعون بالتعري والعبث باعضائهم . يميلون للعب بالاشياء القذرة ، ولايهمهم عريهم او تبلل ثيابهم .

ان مثل هذه التصرفات ، لو صدرت من اولاد كبار او من كهول ، لوجدنا فيها تعبيرا عن انحراف كبير في الطبـاع ، والطفل برأي فرويد وكثيرون غيـره يبدأ حيث بدأ الانسان الابتدائي الاول . وكما يرى داروان ان الجنين يمر خلال تكوينه المراحل التي تم فيها اصطفاء النوع البشري ، بين سلاسل المخلوقات ، يرى فرويد ان الطفل ، في تطور غرائزه ، ويقظة وعيـه الاخلاقي والاجتماعي ، يمر في سنـوات حياتـه الاولى ، بكل المراحل التي مرت بها البشرية لتصل لمرحلتها الاجتماعية الراهنة .

والوجدان الاخلاقي للطفل ، لايأتيه الهاما ولاتنزيلا بل له تاريخه السيكولوجي المرهف . فهو يتكون مـع تطور الغرائز ، ويقظة العقل وتكون الروابط الاجتماعية وينشأ الحس الاجتماعي والاخلاقي من صراع لايتوقف بين نفسية الطفل الابتدائية ودوافعه الغريزية ، وبـين نواهي التقاليد والانظمـة والقواعـد الاجتماعية التي يفرضها الاهل اول ما يفرضون . وتتمثل في الاب اول سلطـة تفرض مقاييسها ، ويخضـع الطفل ، الكثير من ميولـه وغرائزه لتنسجم مع ضرورات الواقع . وتقوم نواهي الاهـل واحكامهم ، دستورا اخلاقيا واجتماعيا للطفل . واستجابة الطفل لهـذه الاحكام بعد مقاومة ، هذه الاستجابة ليس مردهـا سلطة الاهل وضغطهم فحسب ، بل تمليهـا عاطفـة الطفل ورغبته في ارضاء امه ، ومحاولته تقليد أبيه.

في البداية ، يكون حسنا بالنسبة للطفل ، كل ما يمتص ويؤكل ويحتفظ به . وسيئا ووسخا كـل ما يفرز ويلفظ ويلقى . فتكون الوعي الاخلاقي يبـدأ من هذه النشأة المتواضعة . وتحت تأثير جو الاسرة ، يخضع الطفل الكثير من ميوله وغرائزه لاحكام الواقع . فيتقبل الفطام والانقطاع عن ثدي امه ، ومن ثم رقابة نظافته واشياء كثيرة غيرها تدريجيا . وتنشأ علاقات عاطفية معقدة بين الطفل واهله . وينتقل بعد الثالثة من عمره ، من مراحل الاستمتاع الغريزي بجسده ومن حصر العالم في اطار أنانيته ، الى توجيه عواطفه ورغباته نحو غيره ، نحو أمة خاصة . ويدخل مراحل جديدة من الصراع . صراع بين رغباته وبين الواقع وما تفرضه سلطة الاب ووجوده من جهة ، وارضـاء الام وكسب حنانها من جهة ثانية .

هذه المرحلة الاخيرة ، هي التي تسميها مدارس التحليل النفسي بالمرحلة الاوديبية ، والتـي حين يتجاوزها الطفل ، يدخل مرحلة التلاؤم الاجتمـاعي . وهناك عوامل أخرى تتدخل في هذه المرحلة أيضا . منها وجود الاخوة والاقارب الكبار ، وتتدخل النواهي والزواجر الاخلاقيـة والدينيـة الشائعة ، وفكـرة الخطيئة والعقاب . واخلاقية الطفل تبقى غيـر نهائية حتى سن السابعة ، أو سن « الاخلاقية الثنائيـة » حسب تعبير « فرويد » .

من هذا كله . نرى ان الانحراف لايأتي مصادفـة كلية ، كما انه بذاتـه لايخلق فـي النفس شيئـا . فالانحراف اما توقف في تكوين طباع الطفل ونفسيته. عند مرحلة من مراحل تطورها . وعدم تجاوز هـذه المرحلة ، أو أنه انتكاس وارتداد الى مرحلة ابتدائيـة، تحت تأثير صدمة أو أمام ظروف خاصة في النشأة .

ويصح هنا أن نشير الى ان هناك من الاحداث من لايستيقظهم حسهم الاجتماعي ولا ادراكهم العقلـي ،

يقظة تامة ، فيبقون بلهاء أخلاقيا كما هم بلهاء عقليا. ويلعب الدور الاول في مثل هذه الحالات ، الوراثة والمرض ونقص التكوين . وهناك أيضا من يستيقظ ادراكهم العقلي ، ويتطور ذكاؤهم تطورا طبيعيا ، أما وجدانهم الاخلاقي فلا يتكون أو لاينمو مطلقا (كما هي حال أولئك الذين يسمونهم بالمنحرفين بالفطرة أو السيكوباتين) ، أو يتوقف في نموه عند مرحلة ، أو ينتكس ، وذلك بسبب صدمة نفسية أو ظرف خاص أو مشكلة طارئة ، تؤثر تأثيرا عميقا في التطور العاطفي للطفل وفي انحراف طباعه. وهؤلاء هم الذين نعني بهم هنا ، عند الحديث عن مسؤولية الاسرة ، وتأثير تفككها وفسادها في تكوين الانحراف ، الى جانب غيرها من العوامل الاجتماعية التي تأتي بعدها ، من فساد في البيئة وفقر وجهل ، ومن جو شيء في المدرسة ومن عشراء السوء ولمغريات واجهات المحال التجارية أثرها على المحرومين ، ولابطال السينما والروايات والمجلات المصورة تأثيراتهم ، وهناك عوامل أخرى أيضا ومؤثرات ، ونقتصر هنا على التطلع اليها كلها من خلال ذلك الاطار لنشأة الطفل ، اطار الاسرة ، فنطالعها كظواهر ووقائع .

البيئة العائلية للطفل المنحرف

ان أهم الوقائع ، والظروف التي تؤثر في انحراف الاحداث من خلال الاسرة نجملها كما يأتي :

فساد لاسرة بفساد جوها الخلقي : كأن يكون الاب لا أخلاقا شاذا او مجرما او سكيرا ، او ان تكون الام منحرفة او ضالة ، او ان يسود جو من اهمال الاولاد وعدم الاهتمام بتربيتهم ، مما يضعف تكون الحس الاخلاقي عندهم . وان سلوك الطفل مسلك التقليد لابويه ، وأثر ذلك في تكوينه النفسي ، أمر معروف . واذا ماقام عند بعض الاولاد سلوك معاكس لسلوك الاهل، كرد فعل أو كنزعة للمعارضة ، فهذه حالات خاصة ، يذكر لنا منها الاستاذ أوبير ، حادثة ذلك الولد الذي تربى على يد أم سكيرة منحرفة ، كانت تدفعه الى السرقة ،وكان يرد على ذلك بالتمسك بالامانة والشرف . ولكن مثل هذه الحالات التي يتغلب فيها التلاؤم الاجتماعي الاخلاقي ، بتعارض مع جو الاسرة الفاسد ، ليست كثيرة مع الاسف . فالتوجه ضد المجتمع هو القاعدة العامة في سلوك الاطفال عندما يكون سلوكهم رد فعل معاكس لسلوك الاهل . وهناك حالات نرى فيها انقلابا في موقف الطفل من والديه . فبعد مرحلة من الاعجاب والتشبه يكشف مثلا ضعفهما أو كذبهما أو اخطاءهما . والخيبة هنا تسبب انهيار الاصنام . فيسلك مسلك التمرد ضد قدسية هذه النماذج الاخلاقية التي تساقطت ، وضد كل قدسية أخلاقية أو اجتماعية .

وهناك الوضع الاجتماعي للاسرة : فالفقر وما يسببه من احساس بالظلم والحرمان ، وبيئة الفقر في الاسرة وما تسببه من جهل واهمال لتربية الاولاد . وشروط السكن الفقراء وما تسببه من اهمال للنظافة والحشمة . وتعدد الزوجات فنقص احترام الطفل لابيه . وكثرة الاولاد والاهمال المرافق. واضطرار الام للعمل خارج البيت وبعدها أكثر الاوقات عن أولادها ، أو اهمال الاب المتعب أو المضطر للتغيب طويلا عن البيت بسبب أسفاره مثلا . هذه كلها عوامل تضعف تربية الطفل وتشوش تكامل طباعه واخلاقه . واذا كان الفقر علة اجتماعية لم يخترها الفقراء ، فان للاغنياء ايضا ضعف تربيتهم واخلاقهم واهمالاتهم لاولادهم وشوائبهم الكثيرة وليس أقلها خطورة ترك الطفل لاهتمام المربية والخدم ...

وهناك اضطراب العلاقة بين الابوين ، وجو المخاصمات وتبادل الشتائم والكلمات الفظة ،والقسوة والشراسة في المعاملة ، وهذه كلها تخلق جوا من الخوف وعدم الطمأنينة وعدم الاحترام عند الطفل ، كما تكون تهديدا دائما وصدمات متكررة لنفس الطفل الواهية التكوين .

والطلاق وافتراق الابوين ، أو موت أحدهما، له أثر مباشر في نفسية الطفل ، حسب المرحلة التي يجتازها في تطوره ، وحسب الجو الذي ينتقل اليه بعد هذا الافتراق . وموت الاب او زوال سلطته بغياب طويل ، من العوامل المؤثرة في انحراف طباع الطفل . وكثيرا مايكون الانحراف عارضا ، ينتهي

بعودة الاب أو يتبدل الجو العاطفي بين الطفل وامه . ومن الحوادث التي تتكرر دائما ، حادثة الحدث الذي يكون ودودا لامه ، ثم لايلبث ان ينقلب شرسا قاسيا بعد غياب أبيه ، فيعذب امه ويقسو عليها ، أو يترك البيت أو يقدم على الاعتداء والسرقة . ويذكرون في فرنسا ، بعد غياب الآباء اثناء الحرب واحتلال الالمان ، حوادث كثيرة لوشاية أحداث بأمهاتهم أو بجيرانهم الى الفستابو .

وان زواج الاب والام ، وعوامل الغيرة والنزاع مع زوج الام او زوجة الاب ، تسبب ردود افعال في سلوك الطفل تختلف حسب نموذج طبعه ، من الضعف والخنوع عند الخجول ، الى التمرد والشراسة عند الخيلائي ، الى الانزواء واليأس عند الانفعالي . وأمام هذه العوامل يندفع الحدث أحيانا للهرب والتشرد ، أو يسير في طريق الجنوح والاجرام .

ومن عوامل ضعف الجو لتربوي للاسرة ، الزواج المتأخر والآباء المسنون ، اذ تضعف سلطة هؤلاء الآباء ويفرطون في تدليل الولد فيصبح ملحاحا لايوقفه رادع . وبعد سن الاب يجعل تلاؤم الطفل معه ، كما يجعل تطور طباعه بالتفاعل والتقليد عسيرا . وكذلك في حالة تسليم الولد لجده أو جدته لتربيته . فتسامح الجدة الكبيرة ، أو خوفها المفرط عليه لغياب أبويه ، أو تدليلها له لكسبه لجانبها وليغيرتها من زوجة ابنها ، هذه كلها عوامل ودوافع تهيء لانحراف طباع الطفل .

ولا ننسى أثر الغيرة من الاخوة ، لاسيما في جو الاسرة الكثيرة الاولاد او المتعددة الزوجات ، وما ينشأ من فرق وتحالفات ، وما يتكون من اضطرابات عاطفية ، تؤثر في نفسية الطفل . وهناك ايضا وضع الولد الوحيد والولد المتبنى أو اللقيط :

ان الولد الوحيد يتميز بطباع خاصة على الغالب ، فحياته الدائمة بين الكهول ، تهيء لنضجه الفكري الباكر ، ولكنها تكون عنده في الوقت ذاته ، ميولا خاصة ، وحبا مفرطا للذات ، ويزيدون من ذلك تسامح الاهل واهتمامهم المفرط به . فاذا ماطرأ طارىء على الاسرة ، أو جابهت الطفل صدمة عاطفية أو عقبة ، كانت التربية صالحة لنشوء الانحراف . وتلافيا لهذا ، يحسن بالاهل ان يزجوا بوحيدهم بين غيره من الاطفال وان لايعزلوه في اطار الكهول .

اما الوليد اللقيط ، فهناك اولا عامل وجوده كلقيط وما يمكن ان يحمله له كميراث وما يدلل عليه من تخلف اخلاقي عند الوالدين الحقيقيين . ويدخل ايضا عامل صعوبة تلاؤمه مع وضعه كلقيط . كما ان شروط التبني قد لا تكون كاملة ، كأن تتبناه ارملة او عازب وهناك تميز الاخوة عنه وتباهيهم عليه ، كما أن انحرافه قد يتطور بعد صدمة ينكشف له فيها فجأة اصله كلقيط . وتكون الصدمة اشد اذا ما جاءت متأخرة ، او كان اطلاع الطفل عليها مواربة ، كاستماعه خلسة لحديث خاص بين الاهل ، او بمجابهة غريب له بالحقيقة . وهذا ما يلزمنا بان لا نخفي عن اللقطاء حقيقتهم مطلقا ، كما يترتب على متبنيهم ان يوفروا له جوا اقرب ما يكون من جو الاهل الطبيعي .

وللصدمات العاطفية ، الناشئة عن الحرمان المفاجيء من حماية الاب او من عطف الام ، اثر كبير في تكوين الانحراف ، كما لها اثرها في تكوين العقد والاضطرابات النفسية . واورد هنا هذه المشاهدة التى يلتقي فيها الاضطراب النفسي ، والشعور المرهق بالذنب بعداء المجتمع والانحراف عنه .

جاءني منذ ثلاث سنوات ، شاب في نحو الثانية والعشرين من عمره ، يشكو قلقا وحصارا نفسيا وضيقا بمجتمع الآخرين . فهو لا يوجد بين جماعة من الناس الا ويشعر ان هناك دافعا يدفعه للاساءة والاذى . واذا ضبط نفسه احس بالضيق يعصر قلبه ، ودافعا يدفعه للقيام بشيء يضطر معه لترك تلك الجماعة ، كأن تبدر عنه حركة شاذة ، او يخرج رائحة ويغادر المكان . هذا الشاب موظف ، اي انه متلائم في الظاهر مع مجتمعه ، ولكنه كان عرضة لجنوح اودى به مرة الى السجن ، ولم يقم في السجن طويلا ، اذ كان حينها حدثا دون سن المسؤولية .

ولم يخضع للمعالجة النفسية الا مدة قصيرة ، عرفت فيها من حياته ما امكن معرفته : ماتت امه وهو

صغير ، وتزوج ابوه ، وعاش مع زوجة الاب واولادها في جو مرهق لطفولته . وكان ابوه متدينا وقاسيا في تأديبه ، ولو لأتفه شكاية او بادرة . وفي المدرسة كان متمردا يحس كراهية المعلمين والرفاق ، وكان عنيدا شرسا في مواجهتهم،وكثيرا ما فر من المدرسة لوحده.

لقد شعر منذ صغره ، انه فقد الحب والحماية ، وان اهله وجميع الناس اعداء له . وانخرط في سن المراهقة بحركةسياسيةمتطرفة ، وكان مندفعا للتنفيذ والتصدر في كل اضراب ومظاهرة . وكان يجادل الآخرين بنزق ويخاصمهم كثيرا.واندفع بثورة غضبة، بعمله كموظف بسيط ، منفصلا انفصالا كليا عن الاصل والاصدقاء . وهنا انفجرت ازمته النفسية على الشكل الذي دفعه لمراجعة الطبيب .

كان يعاني شعورا مرهقا بالذنب ، يعود لتاريخ بعيد في حياته . في بداية المعالجة كان يقاوم استعادة مايذكره بمراحل طفولته . وتبين تعلقه المفرط بوالدته، التي كانت تعطف عليه جدا . واستعاد بالجهد ذكريات موتها وهو مازال في الخامسة من عمره . كانت أمه مصابة بمرض طال اقعاده لها . وكان يظن أن أباه يتمنى موتها . وعدا صدمته النفسية الكبرى بفقدانها . عانى يوم موتها صدمة أقوى ، حين حملته جدته الى جانب جثة أمه وهم يغسلونها ، وأخذت بقليل من الماء المتساقط عن الجثة وأسقت منه الطفل . وزعمت أمه ان هذا يجعله « يأخذ عمرها » وظل الطفل أياما في حالة يرثى لها كئيبا منطويا يتقيأ كل طعام .

لقد سلبوه عطف أمه بهذه القسوة فمن المسؤول؟

توجه بنقمته الى أبيه والى كل من يفرع عنه ، وتمرد عليه وعلى كل القيم الاجتماعية والاخلاقية التي تمثل في أبيه كنموذج للسلطة القائمة عليه . ثم أخفى مأساته مع أبيه على معلميه وعلى المجتمع كله . وفي أثناء مظاهرة ، طعن زميل له بسكين . وسلمه أهله للقضاء ، وبعد مغادرته السجن ، ترك مدينته ليلتحق بعمل واثناء جلسات المعالجة ، كان يبدو دائما متوتر الاعصاب ويده منقبضة بقوة وعضلاته مشددة وكأنه يريد أن يضرب ...

***

هذه الحادثة ، ككل حادثة انحراف ، لا يدخل في تكوينها عاملا واحدا ، بل مجموعة من العوامل ، منها جو الاهل والتربية القاسية والحرمان والصدمة العاطفية ، وعلينا أمام كل حادثة جنوح وانحراف ، ان نستقرىء الاسباب وكيفية تأثيرها،وهذا مايساعدنا في معالجة المنحرف وتقويمه ، وفي التوجيه لخلق أسباب الوقاية في المجتمع .

***

قد تجولنا حتى الآن في أجواء ، قد لايطيب للنفوس التوقف عندها والالحاح عليها . لقد كان نصيبنا ان نخضع غرائزنا الوقائع ، وأن نتلاءم مع قواعد للسلوك أرادها لنا مجتمعنا . وتعلمنا أيضا ان ننسى نزعات الطفولة ، وان نخجل من كثير من الخواطر التي تمر بذهننا أحيانا ، والتي نسميها خواطر شيطانية . ومن لايمر بخاطره خيالات يخرج بها على قوانين المجتمع . ولكننا أقمنا في نفوسنا رقابة حتى على أحلامنا . ومن حسن الحظ ، ان وجد دائما من استطاعوا اطلاق الافكار من عقالها ، ليجعلوا الاعماق تتكلم .

انني لا ارمى هنا الى علماء النفس والطب النفسي ، بل الى أولئك الذين اذا ماأمسكت بقصة لكاتب منهم ، أو قصيدة لشاعر ، وجدته كأنه يحدثك عن نفسك ، ويكشف لك آفاقها ، لما يحدثك بصدق عن نفسه وتجربته . فالادب والشعر ، كانا اسبق من العلم الى الاحساس المرهف بطبائع النفس الاشرية وأحاسيسها ، فلا غرابة بعد ذلك اذا ما وجدنا عبقرية رجل عالم كفردين ، يتوجه لمعرفة النفس ، من دراسات ادباء وفنانين وفلاسفة . فراح مثلا يتحرى في شخصيات مسرحيات شكسبير نماذج للصراع القائم في أعماق النفس البشرية ، كما ذهب الى الاساطير النائية ، يختار منها صورا ومسميات مراحل التطور النفسي وعقده .

وفي معرض البحث عن الاحداث المنحرفين ووسطهم العائلي ، نجد أمامنا عددا من الشخصيات الادبية العالمية ، وقد عبرت في انتاجها ،

وفي حياة افرادها عن هذه المشكلة . لنأخذ مثالا على ذلك الكاتب الفرنسي أندره جيد ، الذي اشتهر لدى الشبيبة ، بنداءاته الحارة ودعواته للتمرد ، لاسيما ضد الاسرة والاهل . وهذه الدعوات نراها قوية جامحة في كتابه « الاغذية الارضية » الذي يضج بالسخرية من جو الاسرة البورجوازي كما يضج بالدعوة للتمرد عليه ، يقول مثلا :

« أيتها الاسر ، انني أكرهك ، ما أنت الا بيوت مغلقة ، وآباء مغلقين على أنفسهم ، وتملك غيور للسعادة ولكم بقيت أحيانا ، واقفا في الليل لايراني أحد ، خلف زجاج نافذة ، أتأمل طويلا في عادات بيت . لاب كان هناك قرب النور ، والام تخيط ، بينما مكان سلف من الجدود خاليا ، وولد قرب الاب يدرس . ويمتلىء قلبي بالرغبة في أن أقود هذا الولد معي على الطرقات . »

والى جانب هذا ، نجد في أدب **أندره جيد** ، مانجده في حياته من تعبير عن انحرافه الجنسي وميوله الشاذة ، وأراد أن يجعل من ذلك نظرية عامة يدافع عنها ويجد لها تبريراتها . وفي مقابل ذلك نلقى عنده نظرة خاصة للمرأة يبتعد فيها بها عن أن تكون موضوعا لرغبة أو متعة ، وجيد هو الذي يأخذ بيدنا في كتبه ليدلنا الى انحرافاته ومالها من جذور في نشأته ووسطه العائلي توفي أبوه قبل يقظة وعيه ، وعاش تحت رعاية أم متدينة دقيقة التصرفات ، فرضت على طفولته جوا ضيقا متزمتا ، فتحول بموضوع عاطفته . وانحراف بأهداف غرائزه ، حتى اذا ما تزوج كانت حياته مع زوجته صورة جديدة للمأساة التي عاشها مع أمه وهو طفل ، فكانت علاقته مع زوجته ، لاتلك العلاقة الصميمية بين الزوج وزوجته ، بل نوع من التعايش القائم على التقدير . وبطلة قصة الباب الضيق تعيش مأساة ذلك الحب الفاضل الذي يتنكر له جيد وينحرف عنه . فهو هنا يعرض الصورة المناقضة لما يريد . أما كتبه الاخرى فتطرح موضوع التمرد ، وفي كتابه « اللا أخلاقي » يعيد ماجاء عليه في كتابه « مزيفوا العملة » من عرض لصورة الحدث الذي يقترف جنحة السرقة دون ان ينظر لذلك أية نظرة أخلاقية ، الا تردده وتخوفه من ان يراه الآخرون . ومثل هذه النظرة تراها عند كل الاطفال في مرحلة « الاخلاقية الثنائية » ، فأول مايثيرهم الخوف من اكتشاف خطيئتهم ، أكثر من فكرة الخطيئة بذاتها .

ان جيد لم ينل في طفولته المحبة والحماية، فنقم وتمرد ، ولكنه عزل انحرافه في ناحية ولم يجنح ، واستطاع ان يجد عن طريق التعبير الادبي سبيلا للتسامي على ضعفه ، وعاش أمام مجتمعه قويا . اما انحرافات شاعر عبقري كبودلير ، فقد انتهت به الى المرض والعته وكانت لها أيضا مصادرها في تحلل أسرته . وأدب « ادغار ألن بو » وأشعاره وظروف نشأته ، مثال أسهب في دراسته علماء التحلل النفسي . ولا بد من وقفة عند الشاعر الحدث « آرتور رامبو » الذي تألقت عبقريته كوميض من نور وهو مازال في سن المراهقة ، وانطفأت هذه العبقرية قبل ان يملك أشده ، فعبر عن تمرد جيل على مظالم مجتمع بورجوازي ، كما عبر بكثير من الحرقة عما يعتلج في أعماق نفسه من شعور بالنقص ومن حاجته للعطف ، عطف الام خاصة .

وحياة رامبو كانت نموذجا من نماذج انحراف الاحداث : فرار من البيت وتشرد واقامة عابرة في السجن ، مصاحبه لفرلين الكهل وعلاقة شاذة به ، اندفاعات غريزية وأهواء ، كانت عبقريته في صراع معها . والعبقرية ماكانت يوما ثمرة للانحراف والشذوذ ولو تعايشت معهما .

وأخيرا ظفر الانحراف وصمت الشاعر وهو في التاسعة عشر ، وانطلق مغامرا في الحياة ليجد لانحرافاته وقد كبر ، تلاؤما مع حياة جديدة عاشها بعيدا عن مجتمعه ، يعمل كمهرب وبتجارة العاج في افريقيا، وظل أكثر من عشر سنوات خامد الشاعرية ليموت بعد حادث تافه .

حمل رامبو منذ طفولته ، احساسا قويابالنقص والحرمان ، فنقم على أسرته ، وهذه صرخته التي أطلقها منذ البداية :

« ياأهل ، لقد صنعتم أنتم شقائي ، وصنعتم شقاءكم أيضا » .

وكره البيئة التي نشأ فيها ، وهذا ماكتبه لمعلمه وهو في السادسة عشر :

« مدينتي تتفوق على كل مدن الريف الصغيرة ببلاهتها ، حيث لاكتاب ولا مرقص في متناول يدك ، حتى ولا حادث في الطريق .... فما أقبح هذا الريف الفرنسي . »

وتمرد رامبو على مجتمعه ورفض قيمه ، وكانت مجموعته الشعرية الاخيرة « موسم في الجحيم » صورة لذلك التمرد ، ومما يقول :

« أنا لم أكن من هذا الشعب أبدا ، لم أكن يوما مسيحيا . أنا من ذلك العرق الذي كان يغني وهو يعاني مر العذاب . أنا لاأفهم القوانين، لاوجدان أخلاقي عندي . انني جلف . »

والى جانب هذا الرفض ، تمجيد للخارجين على القانون . يقول رامبو : « كنت مازلت طفلا وانا أعجب بالمحكوم بالاشغال الشاقة ، القوي البأس الذي لايخضع ، وتنغلق عليه أبواب السجن . وكنت أزور الفنادق أو البيوت التي قدسها باقامته فيها .. »

ولكنه تجاوز في تمرده مجرد النقمة على المجتمع ، ليطالب بالثورة الكلية . فهو اذا ماقال :

أنا من العنصر الناقص ، عنصر العبيد والمظلومين .

فانه يردف ويقول : « العبقرية أن تكون وفيا للحرية كل الوفاء . »

ويدعو لقلب المجتمع عنوة ، لصالح المظلومين والمعذبين .

هذه نتف تنم عن جو المشكلة التي عاشها **رامبو** ، ولكن مشكلته الاساسية التي تتراءى وراء كل ذلك ، فهي تلك التي تبدأ في طفولته وتعود الى جو الاسرة التي نبت فيها :

الام ريفية قوية ، قاسية على نفسها والآخرين هي ابنة مالك تزوجت ضابطا من فرقة مقيمة في الجزائر ، أي أنه كان بعيدا عن البيت أكثر الايام ، لتسود البيت سلطة الام ببخلها وعجرفتها ونقمتها على زوجها وزواجهما الفاشل . وانتهت هذه الاسرة الى التفكك والتفرقة ، وترك الاب البيت ورامبو صغير ، ولكنه يذكر جو الشجاروالمشاحنات بين أمه وأبيه ، وهو لاينسى حادثة رسخت في ذهنه من بين ذكريات طفولته الاولى ، لضجة ذلك الصحن المعدن الذي رماه الزوج غاضبا ومن الام حانقة . وماذا يخلق مثل هذا الجو في نفس الطفل غير الخوف والقلق . وكان لرامبو أخ وأختان ، ولكن الام أخضعتهم لسلطانها ، وفرضت عليهم نمطا خاصا في الحياة ، وبعدا مطلقا عن دنيا اللعب والاولاد . وأرادت لرامبو الصغير أن يرسل شعره كالبنات وان يصبح أضحوكة بذلك ، وحاولت أن تخنق في نفسه كل استقلال ، كارهة أن تسلب ابنها رجولته . ولكنها وهي الشديدة التزمت ، تقبلت فيما بعد علاقته بفيرلين بتسامح غريب .

كان رامبو في تعطش للعطف والمحبة ، فقام في نفسه نحو أمه ، مزيج من الكراهية والاقتتان وأحس أنه غير محبوب فقدر أنه مذنب ، وشعوره هذا دفعه في اتجاه النقمة فصاح :

« على مدى الانهار ، أولاد يختنقون من اللعنة . »

لقد اراد ان يمثل الرجل أمام أمه من بعد أبيه ، فاتحا قلبه للمحبة ، ولكنها أم بائسة لاتعرف الحنان ، وواجهته بالقسوة وكانت تضربه ضربا مبرحا ويقف مستسلما . فهي أم حاقدة على الرجال، تلبس السواد دائما ، وتشيع هذا الجو القاتم في دنيا أولادها . وهكذا قامت في شخصية رامبو ثنائية ، لقد اصبح رجلا بصورة مبكرة في تطلعه وبقي طويلا ذلك الولد الصغير الخاضع . وأحس كأنه يتيم محروم ، فتحرى عن طريق الشعر ، ذلك الاعتبار للذات الذي لم يعلموه اياه . لاذ لا أم عطوف ، فلتذهب أمه من أحلامه وليجعل في شعره من اليتم موضوعا للحب الكبير الشامل.

ولتبين مشاعر رامبو هذه بعمق ، لنقرأ قصيدته « هدايا العيد لليتامي » وهو يعرض فيها صورة

يتيميـن (لربمـا هو وأخوه) مهجوريـن فـي ليلة الميـلاد . يقول :

« الغرفـة ملأى بالظل ، تسمـع فيهـا همس الطفلـين هادئا حزينـا . والجبين المثقل بالحلـم ، يرتفع تحت الستار الابيض الطويـل الـذي يعلـو وهو يرتجف .

بينمـا تقترب العصافير البردة مـن بعضهـا خارجـا ، ويخـدر جناحهـا تحت عبء السماوات القاتمـة .

والسنـة الجديدة حواشيهـا ضباب ، تجرجر أعطاف ثوبها الثلجي . وتبتسم بدموع ، وتغنـي وهـي ترعـد . »

ويأخـذ بنـا رامبـو فـي هـذا الجـوالبائس فنرى الطفلـين يتهامسـان ، تغشـاهما فـي الغرفة الباردة عتمـة وخوف ، بينمـا تتنـاثر ألبسـة الحداد السـوداء ، مـن حول سريرهمـا . ثم يقول :

نحس فـي هـذا كله ، أن شيئا قـد فقـد .

« ألـم يعـد هنـاك لهـذين الصغـيرين ، أم ببسمتهـا الوادعـة ونظراتهـا الظافـرة ؟ تراهـا نسيت اذن قبـل تركهمـا فـي المسـاء ، وهـي الوحيـدة الرؤوم ، أن توقظ لهيبـا مـن تحت الرماد. لقـد نسيت ان تدثرهمـا بالصـوف واللحـاف ، قبل أن تغـادرهمـا ، وهـي تناديهمـا :

غفرانكمـا ! »

ويلح رامبو علـى هـذا التعطش لعنـاية الام ودفء صدرهـا ، ويستغرق فـي أحلام اليتيمـين وحنينهمـا :

للبساط الدافيء ، للعش المفروش بالقطـن ، يرتاح عليـه الاطفـال ، كصافير جميلـة ، تهتـز بهـا الاغصـان .

ثم ينفض الحلـم وينادي :

« أمـا هنـاحيث أتطلـع ، فعش بـلا ريش ولا دفء . ويعتـري الصغـار ، البـرد والخـوف والارق .. »

ويتبـع :

« لقـد أدرك قلبكم ذاك ، هـذيـن الطفلين لا أم لهم .. »

ويؤكـد :

« لا أم هنـا في المسكن ، والاب بعيـدا جـدا ، وخادمـة عجوز تعني بهم . انهم يتامى فـي الرابعـة مـن العمـر . »

ويـدخل بنـا وبهـم ، الـى غرفـة الاهـل الخاليـة ، حيث لاقبل ولا مفاجـآت ولا هدايـا . ويدمدم معهـم فـي ليلـة العيد :

« متى تعود اذن أمنـا ؟ »

وينتهـي :

« والآن يغفو الصغـار حزانى تحسبهم يبكون فـي نومهم . »

أمـا هديـة العيـد ، التـي تستيقظ عليهـا نظراتهم ، مـن خلال الجفون الدامعـة المرتجفـة ، فصورة للام ، فـي اطـار يجلله السواد .

لقـد وضـع رامبو فـي قصيدتـه هـذه ، كـل حنينـه للعطـف ، وكـل شعوره بالحرمـان . فجـو أسرتـه الكابت الكالح ، لـم يترك له السبيل، لدخول المجتمـع مـن بابـه الواسـع ، فتبقى عند الباب مكبوتا ، حتى اذا ما عصفت في نفسه ، بعـد مرحلة الكمون السابقـة للمراهقـة ، مرحلة يقظـة الغريزة والصبوة ، انطلق طائشا علىطريق منحرفـة..

ليس هـذا خـير مايقـال عـن شاعريـة رامبـو ، ولكنـه وجه أسـاسـي مـن وجوههـا .

لقـد عـاش رامبو مأسـاة عصر لامجـال هنـا للتوغـل في متاهاتهـا ، وطرح علينـا في صورة أقوى مـن صـورة انحرافـه ، تردده بـين التمـرد والثورة ، وخطوتـه الاخيرة كـانت عشـار .

ان الانحراف خروج بـلا هدف ، والتمـرد موقف ورد فعل ، ولكنـه موقف قـد لايلزم الانسان حيـاته . أمـا الثورة فطريق وغـايـة وعملية تمرد وخلق لاينتهيـان .

فالعقوق والخروج على روابط الاسرة السليمة انحراف وضلال . ولكن هناك من يتمرد على الفساد لايمكن تسميته انحرافا ، بل هو تمرد الاسرة لانها عبودية وفساد . والخروج على بشق طريقا جديدة . وكذلك الامر بالنسبة للموقف من المجتمع . فهناك الانحراف عن قيمه الصحيحة والخروج على مثله وأخلاقه الاصيلة ، ولكن هناك أيضا التمرد على مظالمه وقيوده الجامدة ، وهناك الثورة التي تريد قلب أوضاع هذا المجتمع ، لترفع بها الى مستوى جديد من الخلق والسلوك والقيم .

من هنا نرى ، ان الفارق بين التمرد الثائر والمنحرف الجانح ، فارق سحيق كبير . الثائر يخرج على أنظمة وقيم جامدة ، في سبيل قيم انسانية حية جديدة . أما المجرم فهو يخرج على المجتمع وقوانيه ، في سبيل ارضاء رغبات وميول فردية .

الانحراف شعور بالغربة والعزلة واللامسؤولية، والثورة شعور عميق بالمشاركة والمسؤولية . الانحراف انتكاس ورجعة للوراء ، والثورة بعث وقفزة نحو المستقبل .

ولكن ، اذا ماكان الانحراف سلوكا فرديا، فان هناك من الانحراف ماتشجع عليه ، وتهيء له ظروف مجتمع معين ، في مرحلة معينة من تاريخه . فهناك أجواء اجتماعية واقتصادية وسياسية عامة ، تفرض نفسها على المجتمع عامة والاسرة خاصة ، فتنشيء جيلا يغلب عليه طابع معين هو أقرب مايكون للانحراف . فهناك اجيال تربت وتتربى على العصبيات والاضاليل والاساطير . وهناك النازية أنشأت جيلا على دق الطبول والتعصب ونداءات البطش والعظمة وتقديس الفرد ، فكان من هذا الجيل من قاموا بأعمال التعذيب والتشنيع والتشفي وحرق الاحياء . وعندما تخرج القيم الاخلاقية والاجتماعية عن جوها الانساني القائم على الحرية والكرامة ، حرية كل انسان وكرامة كل مواطن ، لتضفي جوا من القدسية والتمييز، على شخص أو عشيرة أو أسرة أو طائفة أو فئة من الفئات ، فان بيئة اجتماعية كاملة تتهدد بالانحراف . واذا ماأردنا مثال النازية ، فاننا لاننسى هنا عهود محاكم التفتيش في بعض الدول ، واخلاق عهود الاقطاع والعشائرية عندما تستمر هذه الاخلاق وتتمادى ، بعد ان يفوت أوانها ويتجاوزها التطور الانساني للمجتمع .

وهناك أيضا الظروف الطارئة التي تصيب مجتمعنا من المجتمعات ، كالحروب مثلا والنكبات . فظروف الظلم والفقر والاستبداد، تنتقل من المجتمع الى جو الاسرة الصميم ، وتؤثر أول ماتؤثر على تلك المخلوقات الضعيفة التي لم تكتمل تكوينها وقدرتها ، ألا وهي الاطفال. فلنحرص اذن على ان يكون جونا الاجتماعي ، نظيفا حرا صادقا ، ولنحرص على الحرية والكرامة كأقدس ماننشيء عليه أطفالنا ، فالكذب والتضليل يهددان دائما ، بخلق جيل منحرف ضائع عن أهدافه ، بعد أن يمنعه تزييف الكبار لهذه الاهداف ، من الايمان الصادق بها .

وفي النهاية ، لابد لنا من عودة الى حيث بدأنا :

ان مسؤولية الاسرة في انحراف الاحداث كبيرة . لقد سمعنا تشيسمان ينادي ، وهو بجانب غرفة الغاز : « انني لم أجد في البداية ما يوقفني . »

وسمعنا رامبو يهتف : « ياأهل ، لقد

صنعتم أنتم شقائي . »

وأمام هذا كله ، كيف نصلح المنحرفين وكيف نتوقى الانحراف ؟

لقد أقيمت للاحداث الجانحين ، دور الملاحظة والاصلاح والمعالجة والتدريب لخلق تلاؤم اجتماعي جديد عندهم . وتاريخ العناية بالاحداث الجانحين وانشاء الاصلاحيات لهم ، أمر حديث العهد في بلادنا ، وهذا الموضوع مازال في مرحلة ابتدائية لم نوله العناية الكافية ، هذا الى جانب النقص الكبير والتخلف في المؤسسات التي أقيمت هنا للعناية بالاحداث المنحرفين واصلاحهم .

ولكن الاهتمام باصلاح الاحداث الجانحين وحده لايكفي لمعالجة المشكلة ، كما أنه لم يكن حتى اليوم سلاحا ناجعا لعلاج الانحراف . وانحراف الاحداث يزداد بنسبة كبيرة في العالم ، لاسيما في الولايات المتحدة الامريكية ودول الغرب ، وذلك بنسبة تطور وتعقد الحياة الاجتماعية وزيادة مطالبها ومغرياتها .

لقد أضاف العلم والدرس والاستقصاء ، مزيدا من الوضوح لهذه المشكلة ، ومزيدا من التأكيد على الاثر الكبير لتفكك الاسرة وفسادها في انحراف الاحداث ، كما دلت الى طرق الوقاية والى مسؤولية الاسرة وضرورة تدعيمها .

ولكن هل تكفي المعرفة والوقاية ، وهل لنحسن تربية أولادنا ، ولنقيهم الانحراف ؟. تحفزنا معرفتنا بوسائل التربية القويمة ان جان جال روسو ، الذي استلهم الكثيرون من المربين الحديثين أفكاره في التربية، كان قد أهمل تربية اولاده وأسلمهم ، دون وازع لمؤسسة اللقطاء .

ومن الطرائف التي يوردونها في أمريكا ، حكاية ذلك القاضي المختص بشؤون الاحداث الجانحين ، والذي شهد اثنين من أولاده يمثلون أمامه لجنوحهم . وكان جوابه على التساؤل ، ان مشاغله الكثيرة ، تحول بينه وبين العناية بتربية أولاده .

فالعلة اذن ، هي هنا أيضيا في نفوسنا نحن الكهول ، وفي كل مايثيره فيها هذا المجتمع البورجوازي ، من تفاهات ومطامع واهتمامات بالكسب والترف ، الى جانب خوف المصير ، وفي كل مايتحرك في داخلنا من تعقيدات وأنانيات تنسينا طفولتنا وتبعدنا عن أن نعطي لابنائنا ، مايحتاجونه من وقتنا وعطفنا وعنايتنا وفهمنا لهم .

لقد لجأت سلطات القانون في فيلادلفيا بعد ان استفحلت فيها جرائم الاحداث دون رادع ، الى فرض الاتاوات على الاهل ، ثم لجؤوا في بعض السنوات الى سجن ولي الحدث الجانح،والطريف في النتيجة ، أن جرائم الاولاد تنازلت كثيرا عند تطبيق هذا الاجراء . ولهذا ماله من دلالة ، فاهتمام الاهل ، وشعورهم بمسؤوليتهم، أمر رئيسي في الوقاية من انحراف الاحداث.

واليوم اذ تزداد مشاغل الرجال ومتاعبهم في مجتمعنا ، واذ يترك البيوت امهات لينزلن الى ميادين العمل والكسب ، نحتاج الى كثير من اليقظة والاهتمام بموضوع الاسرة ، والى معالجة أكثر جذرية لهذه المشكلة . وانحرافات الاحداث في بلادنا ، مازالت حتى الآن ، أقل بكثير منها في البلاد المتقدمة علينا ، بسبب ضعف كيان الاسرة هناك ، وقوة سلطانها هنا على الاحداث .

الدكتور جمال الاتاسي

ـ البقية في العدد القادم ـ